مشروع القرن الثقافى

روايات مصرية للجيب

فى كل رواية متعة دائمة



ما وراء الطبيعة

(1) 80

أسطورة الأساطير

(الجزء الأول)

د. أحمد خالد توفيق



المقدمة

أنا مرهق فعلاً ..

ظللت أتكلم عشرين عامًا بلا توقف .. حكيت أشياء كثيرة جدًا . هناك بالتأكيد قصص لم أحكها أو نسيت أننى مررت بها .. هذا شىء طبيعى لمن عاش حياة كحياتى .. لقد تعبت وأشعر أن جفنى ثقيلان جدًا ، وأن كتفى يزنان عدة أطنان ..

يقول لى المؤلف :

ــ « سوف تواصل الكلام .. »

فأقول وأنا أحك رأسى :

ــ « لا تستطيع إرغامى على شىء .. أنا أقوى منك فى كل شىء ، وقد برهنت عشرين عامًا على أننى أقوى وأكثر حقيقة منك .. إن الناس يكفون عن الكلام عندما أدخل قاعة مزدحمة .. الفتيات الشابات الحسناوات يطلبن الزواج منى .. هناك أكثر من لوحة فنية تمثلنى ، رسمها أصدقائى وهناك عدة تماثيل صغيرة .. أما أنت فمجرد مؤلف ، لا يعبأ بك أحد .. »

يقول المؤلف وقد بدا أن كرامته جرحت :

ـ « سوف تتكلم .. »

ـ « حاول أن ترغمنى .. »

هنا يتحول صوته إلى ما يشبه التوسل أو التسول ويقول :

ـ « لا تكف عن الكلام .. لا أقدر على الحياة من دونك .. لقد اعتدت أن أكتبك .. »

قلت له متثاقلاً :

ـ « لا أعرف إن كنت أنت قد اعتدت كتابتى أم أنا الذى اعتدت أن تفعل هـذا بى .. لا يهم .. أنـا تعبت .. أريـد أن أناااااااااااااااام .. »

أنا الدكتور رفعت إسماعيل ، أستاذ أمراض الدم المتقاعد وخبير الأشـباح وعوالم ما وراء الطبيعـة ، ما زال كثيرون لا يعرفون ما يعتقدونه بصددى ، نصاب أم عالم أم شخص مسل لا أكثر .. لا أعرف ...

لكنى عشت حياة حافلة ورأيت الكثير ..

يبدو لى أنه ما من مومياء أو شبح أو مكان لعين فى الأرض كلها لا يعرفنى ، ومن جديد أكرر أن رجل الثلوج الرهيب لو دق بابى لرحبت به مهللاً . عندما تبتعد عن المستنقع تكتشف أن مغامراتك فيه لم تكن سيئة جدًا ..

أنا د. رفعت إسماعيل سأحكى لكم اليوم قصة أخيرة ......

إنها أسطورتى الخاصة ..

تمهيد

ماجى يا ملاكى ..

سامحينى على ما سأسببه لك من ألم. سامحينى على حشد الذكريات الذى سأتركه لك ، وعلى الدموع التى ستسيل من عينيك الساحرتين فى ليالى الشتاء .

أحب ان أموت فى صمت دون صخب . أحب أن أموت كصرصور لا يعبأ أحد به. لكنك هنا ، ولم يعد عمل شىء آخر ممكنًا ..

فى الثالثة صباحًا سمعت كعبى حذائيك .. أعرف هذه المشية ، ثم سمعت اللكنة البريطانية الراقية الممتازة وأنت تتكلمين مع ممرضة ..

عرفت أنه أنت لأنه لا توجد ماجى أخرى ، وشعرت بخجل شديد. أكره أن ترينى فى هـذه الصورة .. هناك أوغاد فى كل مكان ويبدو أن أحدهم كره ألا يبرق لك فى إنفرنسشاير . أعرف

أنك جئت من المطـار تـوًا .. يمكننى أن أرى قامتك النحيلة الرشيقة ، وذلـك البـول أوفر على ساعدك .. الوجـه النحيـل النبيل الجميل البليل .. تعبير (وجه طويل) يستعمل بمعنى (وجه حزين) ، وهذا تعبير دقيق فعلاً .. التنورة الكاروهات السكوتش التى أعشقها ..

ماجى هنا ..

فى الظـلام تشـعر بالشفتين الدافئتين على كفـك المجعدة المعروقة ، وصوت من ترانيم الملائكة يقول :

ــ « يا صغيرى العزيز .. ماذا فعلوا بك ؟.. »

فى 90% من لقاءاتى مع ماجى أسمع هذه الجملة. المرأة الوحيدة التى لا أخفى ضعفى أمامها .. بل لربما أظهره أكثر لأنعم بحنان الأمومة الدافق هذا .. لو كانت امرأة أخرى لفردت عضلاتى ورسمت ابتسامة مستهترة على وجهى كأننى فتـوة السيرك .. سرطان ؟.. وماذا يهم ؟

قلت بذلك الصوت المبحوح المذبوح الذى صار صوتى منذ سنة :

ـ « تمنيت كثيرًا ألا ترى هذا المشهد .. »

كنت محاطًا بالأجهزة والخراطيم كأننى فى فيلم خيال علمى . الإمبراطور الأخطبوط أو ذلك المخ المحفوظ فى قارورة زجاجية ويحكم الفضـــاء .. رأتنى هى مرارًا فى العناية المركزة ، لكن لا بد من أن نعترف بأن الموقف أسوأ من المعتاد هذه المرة ..

لا بأس .. لن أزعم ابدًا أننى فقدت صحتى فجأة . لا أذكر نفسى إلا مريضًا .. حتى فى طفولتى كنت أصاب بنزلات شعبية فى كل لحظة ..

لقد صار الوهن والمرض جزءًا رئيسًا من حياتى . لهذا لا أعرف كيف يعيش غير المرضى ، ولا معنى أن تصعد الدرج دون أن تتقطع أنفاسك ويؤلمك صدرك وتسود الدنيا أمامك. لم آكل أى وجبة دون نار فى معدتي. لم أشم أى شىء دون أزمة ربوية ...

لم أملك الصحة قط لهذا لا أشعر بفقدها ..

ماجى !... هل هى حقًا تقترب من عمرى ؟.. لم أشعر قط بذلك وإنما ظلت هى هى كما كانت منذ .. منذ كم عامًا ؟.. هى

لا تشيخ أبدًا كأنها الأنهار أو القمر .. بينما أبدو أنا كالرنجة المجففة إذا غمرت فى حمض الكبريتيك لمدة أسبوع ، ثم انتزعوها من فم كلب مسعور ..

صـــباح اليـــوم سمعتها تتكلم فى الردهـــة الخارجيـــة ، وهى لا تعرف أن أذنى حساستان لا تفقدان كلمة ... كانت تتكلم مع د. منصور أستاذ جراحات الأنف والأذن والحنجرة. كانت تتساءل إن كـــان السـفر لبريطانيا يمكن أن يفيـــدنى .. مستشفيات جامعة (داندى) ..

كان يرد عليها بصوت يحاول أن يجعله خفيضًا .. يقول :

ـ « هناك ثانويات فى كل مكان .. لهذا لم نستأصل الحنجرة. لم يعد أمامنا سوى العلاج الإشعاعى والكيماوى . هذا هو العلاج هنا وفى كل مكان فى العالم .. »

ساد صمت ثم سمعتها تقول :

ـ « كم من الوقت ؟.. »

ـ « كم ماذا ؟.. »

ـ « أنت تفهم .. »

ساد الصمت من جديد ثم قال :

ـ « لا أحد يعرف .. لكننا قريبون جدًا .. »

كنت أرمق السقف مفكرًا ..

قال لى د. لوسيفر إنه يرى فى داخلى المرض العضال الذى سوف يودى بى ، وقد راق له هذا كثيرًا . قال إنه سيرى سيناريو عذابى من جانب النجوم ويستمتع به جدًا .. لابد أنه جلب كيسًا كبيرًا من اللب وعلبة فيشار ضخمة وعدة عبوات من الكولا .. لا شك أن الشياطين جميعًا تحتشد حول أجهزة التلفزيون . المقاهى كلها كاملة العدد فى جانب النجوم ..

لن يمسنى لوسيفر .. الكتاب مربوط بشريط لاصق إلى بطنى ، وقد رفضت بإباء أن أنزع هذا الكتاب بأى طريقة إلا وقت الاستحمام . برغم هذا أعرف أن بوسعى التخلى عنه .. لوسيفر يفضل أن ينتظر لينعم بعذابى على أن ينهى ألمى بطريقة سهلة ..

يبدو أن كولبى محظوظ .. ألم يقل لى :

ـ « الآن سوف أعلق هذه المشنقة .. وسوف أتدلى من الملاءة جثة هامدة . إنه سوف يأتى من أجلك .. كلاهما آت من

أجلك سواء لوسيفر أو كراولى .. لذا أنصحك أن تفعل مثلى فلا يوجد حل آخر .. ابحث عن ملاءة تتدلى منها .. هذا هو الحل الوحيد صدقنى .. »

سمعت الخطوات الرشيقة ..

رأيت الملاك القادم من الشمال يدخل إلى الحجرة ..

جلستُ على مقعد جوار الفراش . أدركت بسهولة أن هذا البلل تحت عينيها ليس بسبب الأمطار ..

تقاطعت أناملنا وهمست فى لطف :

ـ « للأبد ؟.. »

تساءلت فى الظلام :

ـ « ماذا ؟.. »

ـ « ستكون ملكى للأبد ؟.. »

ساد صمت طويل ، ثم قلت عن غير اقتناع :

ـ « وحتى تحترق النجوم كلها وحتى ... ... »

هنا سمعت من يتنحنح .. وإلى الغرفة دخل عزت وكاميليا ..

كان هناك جو من المرح الصناعى المفتعل . أعرف هذا الجو جيدًا .. تقول أنت إن عزت يبدو أكثر سمنة وتضحك فى افتعال ، فيقول وهو يضحك فى افتعال أكثر أنه يأكل كالحلاليف. فتقول د. كاميليا بافتعال أكثر وأكثر : يا عم ياعم .. لماذا لا تدعونا لنأكل معك ؟ إذن أنت بخيل .. فيتظاهر بأنه لا يسمع الكلام ويقول إحم .. تذكرت أن عندى موعدًا !... إلخ !

طيبا القلب لطيفان .. لكن أهم المتع التى تنتظرنى يوم الرحيل هى أننى سأتخلص من هذا السخف ..

لتذكر الأرض أننى لم أتحمل الملل والتكرار والشعارات المحفوظة طيلة حياتى . أرجو الله ألا يتحقق كابوسى القديم أن يجلبوا رجلاً سخيفًا مملاً ليدفنوه فوقى فى القبر. سوف أصاب بالجنون فعلاً .

لم تكن هناك صعوبات لغوية مع ماجى ... كلاهما يتكلم الإنجليزية نوعًا ويفهمها ، كما أن ماجى تجيد فن إبطاء كلامها كلما قابلت من هو ليس بريطانيًا .. ثم إنها تعرف الكثير من العربية .. لا تنس الأيام التى عاشت فيها فى قريتى مع أختى ..

* * *

كنت أعرف بالضبط سبب آلام العظام هذه ..

سبب لحظات التوهان وفقدان الوعى ..

إنها الثانويات .. أنا طبيب وأعـرف القصة جيـدًا .. الورم الخبيث فى حنجرتى يرسل أزهاره وهداياه القاتلة فى كل صوب. إنه مثل دين جديد يحاول أن ينتشر .. لديه أتباع مخلصون فى كل جزء من جسدى .. بعد قليل سيصير جسدى كله مؤمنًا وأنتهى أنا ....

فى تلك اللحظات كنت أعيش تجارب كاملة وأخوض مغامرات مدهشة .. سوف أبهرك لو أنك سمعت بعضها لكنى للأسف كنت أصحو ناسيًا كل شىء ..

مشكلتى الأخرى التى تعلمتها من حياتى هى أن الغرفة غير خالية .. إنها مزدحمة كأنها حافلة فى وسط القاهرة ساعة الذروة .. لكننا لا نرى . فى قصة شهيرة للافكرافت منح البطل القدرة على رؤية هذه الكائنات عن طريق جهاز خاص ، حتى أنه جن ..

يهتز رأسى ..

هييه إنه يفقد الوعى !

يميل ..

إنه يغيب .. هل يفعلها فى هذه المرة ؟.. فلننتظر ولنحبس الأنفاس ..

أرفع رأسى بسرعة مذعورًا ..

للأسف .. لقد صحا ثانية .. محاولة جيدة . دعونا نعد اللقطة ببطء ..

ويتصاعد الهتاف من مدرجات الشياطين .. كل الشياطين التى مررت بها فى حياتى .. يشاهدون الإعادة ويتناقشون حول المشهد . حول أخطاء اللاعبين الآخرين .. لو أحسنوا اللعب لكنت جثة هامدة الآن ..

فقط تدخل الممرضة لتحقننى بشىء ما ثم تخرج ..

أنام من جديد ..

أفتح عينى لأرى ماجى تفعل شيئًا ما جوار الفراش .. تنسق علب الدواء . تنسق أزهارًا .. ثم يحل الظلام فأطلب منها

متوسلاً أن تعود للفندق ، فتطلب منى فى حرارة أن أظل بخير حتى الصباح ..

أكره نفسى يا ماجى ..

لا أريد أن أعذبك أو أؤلمك بأى شىء . تمنيت أن تصلك البرقية النظيفة الباردة وأنت فى إنفرنسشاير فى القصر جوار المدفأة .. كنت ستتنهدين فى حزن ثم تنسين الأمر برمته. لكنك هنا فى الحرب ذاتها .. ليتنى أعرف من الحمار الذى طلب من سيدة الدياجير أن تأتى ..

أنت الآن تعرف القصة .. تعرف أننى كنت أحكى جل ذكرياتى وأنا مصاب بسرطان الحنجرة . وقد توغل هذا الداء الوبيل جدًا .. التدخين له ثمن فادح على الأرجح. ربما لهذا لاحظ بعضكم أن صوتى صار مبحوحًا مع الوقت ، وأن انتباهى يتشتت كثيرًا .. أخطائى صارت بالجملة .. هناك قصص تغير فيها اسم البطل عدة مرات.

هذه النبتة التى أطل عليها من النافذة .. أوراق نصف خضراء نصف صفراء .. تذكرك بورقة التـوت التى تستر بها فينوس

نفسها فى لوحة بوتشيليى الشهيرة .. ما اسمها ؟. اسم النبتة لا اللوحة .. لكن لو سألت أحدًا لاتهمونى بالجنون ..

فى الفراش لا تسلية لى إلا القراءة والكتابة ..

جلب لى عزت بعض الأوراق والأقلام . هكذا رفعت الوسادة ورحت أحاول أن أدون هذه التجربة. ما الجدوى ؟.. لن أستعمل هذه الخبرات فيما بعد. لكن ما جدوى حياتنا ذاتها إن لم ننقل خبراتنا لجيل تال ؟..

سوف أبحر وسط ذكرياتى .. سأحاول أن أتذكر ما فاتنى ... ما لم أحكه لك .. ما كنت قد نسيت أننى عشته ..

سوف تكون هناك هلوسة كثيرة ، لكن تذكر أن دمى مفعم بالمورفين والبيتادين .. اقبل كلماتى كما هى ولا تلمنى يا صاحبى ..

فريكيكو لا تلمنى .. على رأى سيد الرواية نجيب محفوظ فى (ميرامار) ..

اسمى رفعت إسماعيل ..

ر .. ف .. ع .. ت .. إ .. س .. م .. ع .. ى ... ل ..

(٥)

رسالة من الكينونة

ـ 1 ـ

الغابة عميقة مظلمة عذبة ..

لكن لدى مواعيد يجب أن أفى بها ..

وأميالاً يجب أن أقطعها ..

قبل أن أنام ...

روبرت فروست

* * *

أعتذر بشدة أولاً لأننى لا أنتوى سرد أى تفاصيل عن الكينونة .. كما قلت لك هناك أسرار من الخير أن تموت مع المرء. لن أحكى لك كيف عرفتها ولا من هى .. أعرف أنك راغب بشدة فى معرفة الأمر لكنى لا أستطيع. يكفينا استنتاج أنها كيان واسع المعرفة .. خطر جدًا .. على الأرجح يمكن أن أقابلها فى صورة

بشرية متنكرة. نتبادل الرسائل التى أكتبها بدمى وأحرقها .. رسائلها أجدها تحت وسادتى وهى تستعمل ورقًا مريبًا أعتقد أنه من جلد بشرى مدبوغ. لم تقل هى هذا لكن بوسعى أن أخمن ..

بسهولة أعرف شكل خطاباتها . شكل المظروف الغريب .. طريقة الغلق مع خاتم من الشمع. الكتابة بالحروف القوطية على المغلف . جو محاكم التفتيش وصكوك الغفران ..

اليوم وجدت تحت وسادة فراش المستشفى الخطاب التالى :

عزيزى رفعت :

هذا هو خطابى الأخير لك سواء رددت أو لم ترد. أنت على وشك ممارسة عادة الفناء والتلاشى ككل قومك. ولعمرى هذه عادة سيئة لا أعرفها وقد فشلت فى أن أخلص البشر منها. لسبب ما يحبون أن يموتوا وتتوقف أنفاسهم ويخضر لونهم وتمتلئ بطونهم بالديدان .. لن أفهمهم أبدًا ..

على كل حال تذكر أن هذه ليست سوى مرحلة ، وأن الحياة مستمرة .. أنت ذاهب للقاء خالقك حيث يتم الحساب النهائى والحقيقى لحياتك. سوف تعرف إن كنت موفقًا أم لا. لا أجد

ما أقوله سوى أن أطلب منك ألا تحزن .. يؤسفنى الفراق ، لكن تذكر أننى فارقت آلاف البشر ممن كانوا مثلك من قبل ... لا يمكن أن أقول إن لك وضعًا خاصًا أو متميزًا ..

هذا هو خطابى الأخير .. ربما أحاول أن أخفف آلام النهاية عنك إذا فشل المورفين ، لكن أعتقد أن الأخير كاف .

شكرًا لك .. كانت معرفتك ممتعة .

بإخلاص :

أنت تعرف من ....

* * *

كان خطابًا رقيقًا مفعمًا بالأمل كما ترون .. أجمل خطاب يمكن أن ترسله لشخص مريض ..

هذه الكينونة لن تكف عن إشعارى بالخجل من لطفها ورقتها.

لا أستطيع حرق الخطاب هنا ، لذا دسسته بين صفحات الكتاب العملاق الذى أربطه لبطنى ، ورقدت أنظر للسقف .. كم مرة فى حياتى نظرت للسقف لأرى كائنًا مخيفًا يتشبث به ؟؟؟ هذه المرة

لا أرى سوى كشاف النيون الأنيق البارد المحايد . كشاف سمج لا مبال من فرط ما رأى من موت ومرض ..

وأحاول أن أتذكر ....

تلك الرسالة التى وصلتنى يومًا ما منذ أعوام :

عزيزى رفعت :

أنت تعرف أننى أنذرك من الخطر فى أوقات بعينها ، وهذا لأننى أرى ما خلف الأستار كأن الأستار لا وجود لها . فى عالمك يوجد مخلوق مريب ..

كانت هناك فى القرون الوسطى أمة من الوحوش تحيا فى جزيرة فى المحيط ، ثم بادت فلم يبق منها إلا عشرة مخلوقات أو أكثر قليلاً ... هذه الكائنات تبدو كقطط أو أفاع أو كلاب أو وطاويط .. لا يهم ..

هذه المسوخ تدعى (مولوخات) . ولديها قدرة مذهلة على تغيير الشكل ..

ما لا تعرفه ولا يعرفه البشر هو أن هناك مخلوقًا منها فى مصر الآن ... هذا المخلوق يغتذى بالدم واللحم البشرى ، ولكنه

يبدو للناس شيئًا طبيعيًا برىء المظهر. لا أحد يقدر على القبض عليه أو الكشف عن حقيقته . اليوم أعرف أنه قريب منك جدًا .. إنه فى دائرة عالمك ..

ربما كان هذا بطريق الصدفة ، وربما أرسله خصمك العتيد لوسيفر. المهم أن عليك أن تجـده وتحاول تدميره بأى شكل . لا أقدر على أن أفصح أكثر لكنى أقدم لك هذه النصائح :

ـ أنفك قد يخبرك بالحقيقة .

ـ النار قد تحل المشكلة .

ـ سوف تجد المعلومات اللازمة قرب شجرة عتيقة .

ـ ليس هذا أفضل وقت لطلب يد فتاة .

ـ الصباح المبكر أفضل وقت .

تذكر هذا فلربما نجحت فى أن تبقى حيًا ....

بإخلاص :

أنت تعرف من ....

* * *

يجب أن أكرر هنا إن هذا خطاب قديم .. ربما يعود لعشر سنوات سابقة ..

كنت فى ذلك الوقت أمشى وآكل وأتشاجر وأصعد الدرج .. لابد إذن أن هذه من القصص التى لم أحكها لك بعد ..

شعرت بقلق بالغ .. الكينونة تعرف ما تقول ، ومعظم نبوءاتها لها طابع مصيرى قدرى يذكرك بنهاية العالم .. دائمًا لا تعطى تعليمات واضحة ، لكنها تعطى كلمات عامة .. بعضها مفيد وبعضها يضلل أكثر مما يفيد ..

هناك خطر داهم إذن ..

أنا أعرف الكائنات التى تغير شكلها هذه Shapeshifter. هناك تراث هائل منها فى قصص الرعب والأساطير. ألف ليلة وليلة تعج بها .. تذكر السندباد مع الساحر الشرير الذى بدا أولاً كشيخ مسن واهن .. الأمير الضفدع فى الأساطير الغربية .. بحارة أوديسيوس .. النداهة فى إحدى أشكال القصة تتخذ شكل صديق لك وتدعوك للخروج معها . الفكرة مرعبة دائمًا ...

لا تنس أن المذءوب فى النهـاية هـو شكل مـن أشكال تغير الشكل . لفظة لايكانثروب (مذءوب) فى حد ذاتها هى اسم رجل مسخه زيوس إلى ذئب ..

لكن من أين أبدأ ...

لا أعرف ..

اتجهت إلى جهاز التلفزيون وفتحته .. تلك كانت الأعوام الأولى التى نرى فيها التلفزيون بالألوان .. جلست شارد الذهن أتابع برنامجًا ثقافيًا . مذيعة شقراء تتحدث مع ضيف ممل يغوص فى مقعده ، ويردد بلا توقف :

ـ « الديالكتيك .. لابد من المزيد من الديالكتيك .. »

كنت أفكر بلا توقف . هل هناك أشخاص وافدون إلى حياتى مؤخرًا ؟.. هل من وجوه جديدة .. كانت تلك فترة من الفترات الهادئة فى حياتى فعلاً. لا شىء يحدث ولا مخاوف ..

لكن .. هذه المذيعة .. اسمها (صفاء حجازى) . هاتان العينان الخضراوان اللتـــان تشعان نارًا .. ياقة بيضاء وثوب أســـود .. أنيقة جدًا .. رشيقة الحركات والإيماءات ..

وماذا عن صوت المحرك الخافت هذا ؟.. هناك شىء فى سماعات التلفزيون بلا شـــك .. لكن لا .. أنا متيقـــن من أن الصوت يأتى من المذيعة ذاتها ..

لكنها مذيعة معروفة وشهيرة .. أراها منذ ولدت على ما أعتقد .. لا تشيخ أبدًا كأنها زومبى ، ولعل هذا دليل آخر . لكن مغيرى الأشكال يفعلون ذلك أحيانًا .. أعنى أنهم يحلون محل شخصيات نعرفها . فكرة مرعبة أخرى .. قد يعود أخوك من الشارع وقد صار آخر .. كما قلت إن هناك صيغًا لقصة النداهة قريبة من هذا ...

هل يمكن أن يكون مولوخ ـ على شكل قط ـ قد حل محل هذه المذيعة ؟

مستحيل . هل تعرف السبب ؟.. لأن هذا مستحيل .. لا توجد مصادفات بهذه القوة ..

تبًا .. سوف أصاب بالبارانويا حتمًا ..

هنا أجفلت لأن جرس الباب دق ..

* * *

القادم كان رجلاً غليظًا بدينًا يخنفر بلا توقف .. لابد أن السلم أتعبه فعلاً . كان يلبس ثيابًا رثة متسخة قليلاً .. قال لى وهو يلتقط أنفاسه :

ـ « دكتور رفعت ؟.. »

قلت فى حذر :

ـ « أنا هو للأسف .. »

نظر حوله وأخرج منديلاً مسح به عرقه الغزير ، وقال :

ـ « اسمى صبحى .. محاسب فى بنك (...) .. هناك مشكلة لابد أن أحكيها لك .. عرفت أن عندك خبرة ممتازة فى أسرار ما وراء الطبيعة. هل تسمح لى بالدخول ؟.. »

وقفت أتأمله بعض الوقت .. أعتقد أنه شخص مسالم ، لكن هناك تلك الرائحة .. رائحة كريهة فعلاً تتصاعد منه . أعرف قومًا يعانون البخر بشدة وأنفاسهم لا تطاق ، لكن رائحة هذا الرجل عامة .. تنبعث من مسام جلده ومن خلاياه ...

ـ « أنفك قد يخبرك بالحقيقة .. »

الكينونة قالت هذا .. فهل نحن فى هذه اللحظة ؟..

المتحولون أو مغيرو الشكل جاءوا من فروع عدة .. ربما كان أحد فروعهم ينتمى للخنازير البرية. من يدرى ؟

لو أردنا أن نشبه الكائن القادم لقلنا إنه خنزير .. خنزير برى آدمى عملاق ..

قلت له وأنا أوارب الباب :

ـ « لا أتلقى زيارات من غير موعد .. »

كان قد اندفع نحو الباب محاولاً أن يبقيه مفتوحًا .. لحسن الحظ أنه لا يعرف حيلة (بوارو) الشهيرة فى وضع قدمه فى فرجة الباب ليمنعه من الغلق ..

أغلقت الباب بحزم بينما راح يدق بقبضته ويردد :

ـ « ماذا هنالك ؟؟ قلت لك إن عندى مشكلة ! أنا فى خطر .. »

ـ « لا أتلقى زيارات من دون موعد .. كلامى واضح .. »

ماذا لو كان هو ؟.. ما الذى يثبت أنه من مغيرى الشكل ؟.. ولو كان كذلك فماذا أفعل ؟ هل أجلب سكين المطبخ وأولجها فى صدره ؟.. هل أطلب الشرطة ؟.. أقول لهم : .. « أنا أشك فيه يا سيدى .. يبدو لى كأنه خنزير متحول .. » ولو سمحت له بالدخول فلربما كان هذا خطأ عمرى ....

وقفت ألهث خلف الباب .. لم أكف عن اللهاث إلا عندما توقف لهاثه وعرفت أنه رحل ..

ــ 2 ــ

شجرة عتيقة ؟.. أين أجد شجرة عتيقة ؟

فى ساعة مبكرة من النهار ، رحت أدور حول البناية التى أسكن فيها عدة مرات .. هناك مجموعة من أشجار السنديان فى شارعنا ، وعلى قدر علمى هى أشجار عتيقة معمرة ..

ترى أين يوجد السر الذى يمكن أن يدلنى على الحقيقة ؟..

ــ « أنفك سيدلك على الحقيقة .. ». من قال لها إن أنفى سليم ؟.. لكنها الحقيقة .. ما زلت أشم جيدًا لشدة الغرابة ..

رحت أتشمم الهواء وأنا أمشى فى ذلك الممشى الضيق ..

رائحة كريهة .. لا شك فى هذا ..

كلب مذعور أشعث نظر لى ثم هرع يفر .. هل هو مصدر الرائحة ؟.. هل يعنى هذا أنه مولوخ آخر ؟.. ما الذى يمنع أن يتخذ المولوخ شكل كلب أو قط ؟ لماذا أفترض أنه كائن بشرى ؟

ثم اصطدمت قدمى بذلك الشىء ..

بدا لى أولاً كأنه متسول ينام على الأرض ، ثم رأيت حالة التجرد من الوجود التى يمر بها .. حالة تحلل الخلايا .. حالة اللا حياة ... الفـــارق الواهن الذى يجعلك ترتجف وتجفـــل . لو اطلعت عليه لوليت منه فرارًا ولملئت منه رعبًا كما يقول التعبير القرآنى الدقيق ...

دققت النظر أكثر فعرفت أنه رجل .. رجل بدين غليظ .. رجل كان يطلب مقابلتى منذ فترة وجيزة. هذا لم يكن (مولوخ) إذن وإنما هو ضحية ..

دققت النظر فى الجثة فرأيت أن لحم الوجه ممزق .. وأدركت أن هناك من أفرغها من الدم .. هذه أشياء لا تفوتنى وأدركها بسهولة تامة . بعد عمر من مقابلة مصاصى الدماء لا يخطئ المرء هذه الأمور ..

الجثة على بعد خطوات من جذور الشجرة العتيقة ..

بالفعل كانت الشجرة والرائحة الكريهة هما من قادانى إلى هنا كما قالت الكينونة ..

هذا البائس كان يخشى شيئًا وأراد أن أساعده لكنى خذلته .. يمكن القول بلا خطأ كبير إنه نزل من بيتى فهوجم ، ثم تركت جثته هنا طيلة الليل .. لا أحب أن أتصور أن الكلب الذى قابلنى ظفر بقضمة .. هذه أشياء بشعة ..

شعرت بيد باردة على كتفى فأجفلت ..

استدرت للخلف فوجدت فتاة فارعة الطول تلبس ثوبًا أسود طويلاً ..

كانت جميلة .. هذا ما استطعت أن أدركه مع أول نظرة ..

قالت لى بصوت مبحوح من الرعب :

ــ « ماذا هنالك ؟.. »

قلت وأنا أتراجع للخلف :

ــ « ميت .. هناك من هاجمه هنا .. »

راحت ترتجف كورقة .. ترتجف لدرجة أثارت شفقتى ، ثم اقترحت أن أتصل بالشرطة .. سأفعل هذا طبعًا .. أحيانًا يتمتع الناس بغباء مذهل ..

كان المارة قد بدءوا يحتشدون .. ضوضاء ..

أحد البوابين قال إنه طلب رجال الشرطة .. حالة عامة من الفخر تغمر الناس كأنهم هم من قتلوه .. وكانت هذه هى الفرصة المناسبة .

حان الوقت لأذوب وسط الزحام وأختفى . ليس لدى ما يفيد رجال الشرطة ولا يوجد ما يُقال ، ولن أكتم شهادة أو أعطل العدالة. إذن لا داعى لإضاعة اليوم فى التحقيقات .. ما لم أجد نفسى متهمًا بالقتل آخر الأمر .. أعرف هذه المواقف ..

انسحبت وسط الزحام فلم يلحظ أحد رحيلى ، ووجدت أن يد الفتاة الباردة الراجفة فى يدى فسرقتها لتكون معى ..

كنا نبتعد ..

وهناك عند ناصية الشارع كانت تلك الكافتيريا قد بدأت العمل ، فدعوتها إلى الدخــول .. لا تقلقى .. أنــت بحاجة إلى قهوة مركزة .. هل أفطرت ؟.. نعم ؟.. أنا لا أتناول الإفطار أبدًا .. لا أمارس أى عادة مفيدة أو صحية . هذا شىء التزمت به نحو نفسى ..

هكذا جلسنا فى ذلك المكان الهادئ الدافئ الناعس .. لم يأت زبائن بعد ، وقد بدا أن النادل يشعر بضيق منا لأنه يريد أن نتركه يلتهم الطعمية ورغيف الخبز الأسود الذى كان ينوى البدء بالإفطار به .

قلت له فى رفق :

ـ « سوف تجلب لنا القهوة ثم أعدك أننى لن أطلب منك أى شىء للأبد .. »

بدا عليه الرضا وانصرف ..

قلت للفتاة :

ـ « اسمى رفعت إسماعيل .. وأنا لا أتحرش بك أو أحاول أن تقعى فى حبى . كل ما هنالك أننى أكره أن أتركك ترحلين وأنت تحملين ذكرى جثة ممزقة .. »

لماذا لم تبك قط ؟.. لماذا لم تصرخ ؟

لماذا لا ترمش جفونها بالمناسبة ؟

قالت وهى تبحث عن شىء فى حقيبتها :

ـ « اسمى (أسيل) .. كنت ذاهبة لعملى عندما رأيتك تتأمل شيئًا خلف تلك الشجرة .. عندما دنوت رأيت ذلك المحاسب وكانت الصدمة قوية .. »

ثم راحت ترتجف أكثر .. حتى عندما جاء النادل بالقهوة ورشفت أول رشفة ..

كنت أفكر فى عمق .. المحاسب ؟.. هل جاء الحل بهذه السرعة ؟.. هذا حسن حظ لا أتوقعه .. وماذا عن رائحتها ؟.. لها رائحة عطرة غريبة تذكرك بالبلل ..

أرى ساعدها العارى حيث انحسر الكم .. هل هذه حراشف أم بقعة من داء الصدفية اللعين ؟

قلت لها باسمًا :

ـ « بلا أى انفعال زائد .. من قال لك إن هذا محاسب ؟.. وددت لو فهمت !.. »

نظرت لى ثم اتسعت عيناها .. أقسم أننى سمعت صوت فحيح .. ثم قالت :

ـ « إنه زميل لى فى المصرف .. اسمه صبحى .... »

هذه إجابة معقولة .. لكن هل هى صادقة ؟.. هل كان المحاسب يحتمى بشقتى وخبرتى من خطر معين شعر به ؟.. هل كان يخشى السير فى الشارع ؟.. هل كان هناك مولوخ يبدو كالبشر يلاحقه ؟

هذه الفتاة تذكرنى بالأفاعى .. لا شك فى هذا ..

هل من إجابة ؟؟..

لما انتهت من شرب القهوة وهدأت قليلاً غادرنا الكافتريا . نقدت النادل الذى امتلأ شدقاه بالطعمية نقوده فلم يكلف نفسه بالعد ..

فى الخارج ودعتها .. وطلبت رقم هاتفها ..

ـ « لماذا ؟.. »

ـ « لأطمئن .. »

قالت فى خبث وهى تبتعد :

ـ « أنت قلت إنك لا تتحرش ولا تحاول الإيقاع بى .. »

ـ « هذا صحيح .. »

ـ « برهن !.. »

وسرعان ما انسلت مبتعدة ..

هل هذه هى ؟.. أعتقد هذا . هذا أقرب الاحتمالات الممكنة .. ربما هى أو الكلب المذعور الذى رأيته .. لكن ماذا أفعل بعد هذا ؟ أحرقها لأتأكد ؟ لو ماتت فهى بريئة ولو ماتت فهى مولوخ ؟.. يذكرنى هذا باختبار الساحرات الأحمق فى القرون الوسطى .. ارم المرأة فى الماء .. لو ماتت فهى بريئة .. لو طفت فهى ساحرة وعليك أن تحرقها !!

* * *

لكنكم تعرفون رفعت إسماعيل العجوز ..

إنه يبحث عن المتاعب دائمًا ..

لهذا ـ فى اليوم التالى ـ ذهبت إلى المصرف الذى ذكر لى المحاسب اسمه .. من الصدفة أن لى صديق دراسة يعمل هناك .. بعد شرب الشاى والقهوة والشاى والقهوة ثم الشاى والقهوة ، وقبل أن أموت بقرحة معدية سألته عن صبحى يرحمه الله ..

قـال وقـد تقلص وجهـه ألمًا وحزنًا (ربما بسبب انتفاخ القولون) :

ـ « هذا البائس .. وجدوه ممزقًا فى شارع بالدقى .. لا يعرف أحد من فعلها ولمه .. لقد كان يعانى حالة نفسية معينة ، وكان يعتقد أن هناك من يطارده ليقتله .. حالة نفسية لا شك فيها .. »

فكرت قليلاً ثم سألته عن ...

ـ « (أسيل) .. هل عندكم فتاة اسمها أسيل ؟.. »

حك رأسه ليتذكر .. ثم هتف فى مرح :

ـ « تلك الأفعى الآدمية !... بالطبع !.. »

قلت فى حيرة :

ـ « أفعى آدمية فعلاً .. هذا أقرب تشبيه .. »

ـ « هل تنوى التقدم لها ؟.. إنها جميلة لكنها غير قابلة للمعاشرة .. »

ـ « أفكر فيها لأحد أقاربى .. أ .. هل يمكن أن أراها ؟.. »

مد يده المكتنزة ليمسك بيدى واقتادنى خارج مكتبه الصغير إلى ردهة مليئة بالموظفين الجالسين خلف شاشات الكمبيوتر. هناك كانت جالسة تجرى بعض الحسابات .. مررت جوارها فناداها الرجل محييًا . التفّت لنا وهزت رأسها محيية فى برود ثم عادت لما تقوم به ..

لم تعرفنى !.. أسيل هذه لا تعرفنى .. ربما هناك أسيل أخرى تعرفنى وتذكرنى .. السبب واضح وهو أن من قابلتها فى شارعنا ذلك اليوم لم تكن هى .. كانت أخرى ..

هناك احتمال آخر لا بأس به .. هى لا تذكر من أنا .. من قال إن وجهى يعلق بالذاكرة ؟.. إنه غطاء جمجمة لا أكثر كما قلت من قبل .. لقد قضت معى ربع ساعة بعد ما رأت زميلها فى المصرف ممزقًا .. لابد أن وجهى قد محى بالكامل من ذاكرتها وسط هذه الضوضاء البصرية ..

هل رأت الجثة فعلاً ؟.. هـذا وارد . ولربما فضلت ألا تتكلم ولا تحكى لأحد كما فعلت أنا ..

لكن كيف أتأكد ؟

* * *

فى ساعة مبكرة من صباح اليوم التالى نزلت إلى الشارع ..

أردت أن أبحث عند تلك الشجرة التى وجدت الجثة عندها . الكلب الأجرب راح يحرك ذيله وهو يرمقنى فى رعب .. ترى هل هو أنت ؟..

لا أعتقد .. لكن ماذا يؤكد أنك لست كذلك ؟..

سألته بصوت عال :

ـ « هل أنت مولوخ آخر ؟.. »

لم يرد هذا الأحمق وابتعد مذعورًا ..

ما هذا ؟.. أذكر أن الشجرة كانت هنا بالذات .. جوار هذا الكشك المغلق .. هناك خطأ .. لا بد أننى صرت أبله أو ذاكرتى قد محيت ..

رحت أبحث عن الشجرة التى رأيت الجثة جوارها .. الرائحة .. أين هى ؟

ثم سمعت أنينًا ..

هرعت نحو شجرة قريبة .. شجرة غليظة كسا الطحلب جذعها ، وامتدت جذورها الغليظة فى الرصيف .. عندها رأيت مشهدًا عجيبًا بعض الشىء ..

لقد كانت الفتاة أسيل هناك .. راقدة على الأرض ممزقة الثياب تئن بلا توقف ، وكانت فى حالة لا تسمح بالصراخ . من يهاجمها ؟.. لا تسخر منى .. كانت الشجرة تفعل ذلك .. لقد تحول جذع الشجرة إلى شىء أشبه بفم عملاق مفتوح ينهش الفتاة ، ومنها خرجت ممصات عدة تتمسك بعروقها محاولة سحب الدم .. الشجرة كائن حى .. الشجرة تنبض بالحياة ..

الآن أفهم ..

غبى أنا كما كنت دومًا ..

هذه الشجرة لم تكن هنا أمس .. كانت فى مكان آخر. أشجار ماكبث التى تزحف فى الغابة نحو القلعة .. هى ليست شجرة أصلاً .. هذا هو مولوخ يغير شكله .. من قال إن المولوخات لا تقدر على أن تبدو كنباتات ؟ لم يجل هذا بذهنى ..

الكينونة كانت صادقة جدًا .. لكنها أغرقتنى فى لعبة الشك المتواصل .. شككت فى الجميع تقريبًا ووجهت إصبعى فى كل اتجاه ...

المحاسب رأى لمحة جعلته يشك .. الفتاة سقطت فى الفخ وهى ذاهبة لعملها ..

وثبت نحو الإفريز ، وتمسكت بساقيها ورحت أجرها .. كان هذا عسيرًا مع حالتى الصحية .. وسرعان ما طرت فى الهواء ممسكًا بحذاءيها .. وسقطت جوار جدار السور المجاور ...

هناك بواب صعيدى سمع الأنين فى هذا الوقت المبكر وهرع ليرى أشنع منظر يمكن أن يراه .. هكذا أمسك بساقيها معى وجرها بعيدًا وهو يبسمل ويحوقل ..

لا أعرف كيف استطعنا أن نحررها لكننا فعلنا ..

وهتف البواب بلهجته الجنوبية الجميلة :

ـ « أعوذ بالله !.. من أين جاءت هذه الشجرة ؟.. »

قلت وأنا ألهث عاجزًا عن العثور على هواء :

ـ « اسمع .. هذه ليست شجرة .. ولن نكون آمنين ما لم نحرقها هنا والآن .. »

كنت جالسًا هناك على الإفريز أرمق ذلك الشىء يفور ويمور ويعلو ويهبط ... أرجو ألا يتحرر المولوخ ويلاحقنا ... أرجو ألا يسترد شكله الأصلى قبل أن نواجهه كشجرة ..

* * *

همست ماجى وهى تسمع أنينى فى الظلام :

ـ « حاول أن تنام .. لا أفهم معظم ما تقول لكنه كابوس .. »

قلت بشفتين جافتين :

ـ « ليس كابوسًا بل هى ذكرى .. ذكرى قاسية .. هلا ناولتنى رشفة من الماء ؟.. »

(ف)

فى المثلث

– 1 –

ويوم أغيب .

وراء المغيب .

يقولون كان عنيدا ..

وكان يقول القصيدا ..

وراح يحاول شيئًا جديدا ..

ومات وخلّف هذا الوجودا ..

كما كان قبلاً .. غبيًا بليدا !!

(دكتور غازى القصيبى)

* * *

رائحة الديكول هذه .. رائحة المستشفيات هى رائحة المرض ذاته .. لكنى كطبيب تعلمت أن أعشقها ..

فى الليل تصحو الثانويات فى العظام ، ويتحول ظهر مريض السرطان إلى أداة تعذيب من القرون الوسطى .. وفى الليل تحققنى

الممرضة ببعض ذلك السائل .. سوف يسمحون لى بأقراص المورفين فيما بعد ، لكن هذا يتطلب إجراءات معقدة .

فى ظلام الحجرة كان واقفًا ..

رأيته فى الضوء الخافت القادم من الخارج ، وخطر لى أن أصرخ طالبًا الممرضة ، لكنى خشيت أن تكون هذه هلاوس بسبب المخدرات التى يعطونها لى .. تداخل الحقيقة مع الواقع مروع وكابوسى .. لو جاءت وقالت إنه لا يوجد شىء لساءت حالتى النفسية جدًا ..

لا أعرف شكله لكنه بدا لى كصبى .. مراهق فى الخامسة عشرة من عمره .. ربما ..

تلك الوقفة الثابتة .. لا أعرف عينيه بسبب تأثير السلويت ، لكنى أعرف أنه ينظر لى . كل المسوخ تعرف كيف تستخدم الإضاءة كأفضل مدير تصوير فى العالم. لا يوجد شبح أحمق أو مبتدئ فى فنون الإضاءة ..

قلت فى صوت خافت مبحوح :

ـ « من أنت ؟.. »

بعد صمت قال بصوت يناسب منظره :

ـ « أنت تعرف ..!.. »

هذه محادثة مناسبة جدًا لكى يكون هو الموت .. لو قرأتها فى عمل أدبى لقلت إن بطل العمل يموت الآن ، لكن الموت لا يبدو كهذا ..

عدت أكرر بذلك الصوت الشبيه بصوت صرصور :

ـ « من أنت ؟.. أنت تفترض فى ذكاء لا أملكه .... »

منذ صباى يضايقنى ذلك الوغد الذى يستوقفك .. يشد يدك ويعتصرها فى قسوة وهو يحملق فى وجهك مرددًا (حقًا لا تتذكرنى ؟) فأصرخ ألمًا وأتلوى محاولاً انتزاع يدى ، لكنه يضغط أكثر وتتسع عيناه ويجز على أسنانه .. هلم !.. نشط ذاكرتك !.. تذكر !.. فتقسم بالله أنك لا تذكر .. لكنه مصر على أن تتعلم الدرس بنفسك . فى النهاية يخبرك أنه (محمود أبو سلامة) الذى قابلته فى حفل زفاف (أحمد الفقى) .. أنت لا تعرف أى اسم ولا تتذكر أى شىء ، لكنه مصر على أن يعتصر يدك حتى تتهشم ..

قل من أنت أيها الطيف فأنا لا أتذكر ..

فى اللحظة التالية أدركت أننى وحدى فى الغرفة ..

لا إجابة .. سوف أموت دون أن أعرف من كان هذا ..

* * *

لابد أن الوقت كان مساء .. العواصف عاتية .. الأمواج تتعالى كأنها جبـال أو مردة أصابهم الجنون ، وبرغم هذا حاول القارب الصغير أن يتوغل فى الماء ..

صاحب القارب إدموندو أبراهان كان فى حالة جنون حقيقية ، وقد أصر على أن يظفر ببعض الأسماك فالأطفال جياع .. هناك أفواه مفتوحة فى البيت كأفواه الطيور ..

مساعده إرنستو فابياو راح يحـاول إقناعه بالعكس ، لكن الرجل بدا متحمسًا .. كأن جنيةً بحر نادته لموعد محتوم مع الانتحار .. من ينزل للبحر فى طقس كهذا لن يعـود . لا يحتاج الأمر لذكاء كثير.

ولكن كل محاولات النزول للبحر تفشل. الموج يتقيأ القارب على الفور ، ليجدا أنهما ملقيان على الشط مهشما الأوصال .. يحملان القارب من جديد ..

بدا الأمر كأن هذا عملاق حكيم يحاول منع أطفال عابثين من مضايقته .. ابتعدا .. أنا لا أريد الإيذاء .. سوف أغضب .. غضبى قاس متوحش ..

لكنهما كانا مصرين .. فى النهاية رقدا على الشط فى الظلام وسط الزبد يلهثان. على الأطفال أن يبيتوا جياعًا إذا لم يريدوا أن يبيتوا يتامى ..

وهنا نهض فابياو ونظر لبعيد ثم صاح فى معلمه :

ــ « انظر هناك !.. »

نظر إدموندو لما يشير له الفتى وهو مستعد لأن يلعنه لعنًا لو كان هذا شيئًا تافهًا ، لكن الكلام احتبس فى حلقه .. لا يمكن الكلام وأنت ترى هذا الوحش الجاثم على الشط ...

هذا هو العام 1872 .. وهذا هو ساحل البرتغال قرب جبل طارق ..

فى الصباح جاء رجال كثيرون وأفراد من الشرطة ووقفوا فى رهبة ينظرون إلى السفينة الجاثمة التى قذفها الموج إلى الشط .. سفينة عملاقة مرعبة بدت كأنها ديناصور نائم ..

كان الاسم المكتوب على الخشب المهشم المبتل هو (مارى سلستى) .. اسم سيخلد طويلاً فى عالم ما وراء الطبيعة والظواهر الفورتية .. هذه سفينة أمريكية .

تسلق الرجال إلى السطح بالحبال ، وراحوا يمشون فى حذر فوق الخشب المبتل والطحالب .. من وقت لآخر تتهشم قطعة خشبية ويوشك أحدهم على السقوط ..

كان الأمر واضحًا .. لا يوجد أحد على سطح السفينة .. السفينة خالية تمامًا. هناك مشهد شبيه بهذا للسفينة التى اجتاحها الطاعون فى رواية دراكيولا ، لكن على الأقل كانت هناك جثث على تلك السفينة وكان هناك قبطان ربط نفسه لعجلة القيادة ..

لم يكن شىء من هذا هنا ..

المؤن سليمة تمامًا .. لم تمس تقريبًا . البضاعة سليمة والأشياء الثمينة كلها فى موضعها .. هذا ينفى فكرة هجوم قراصنة على السفينة .. أما أسوأ ما فى الأمر فهو أن هناك أطباقًا على الموائد بها طعام مسكوب لكنه لم يفسد .. ما حدث لهذه السفينة حدث فجأة ولم يمهل الطاقم حتى يأكلوا وجبتهم الأخيرة .

عندما أقلعت السفينة من نيويورك كان على ظهرها عشرة أشخاص ، ولا أثر لهم الآن. دفتر مذكرات السفينة موجود لكن لم يكتب فيه شىء منذ فترة طويلة .. البوصلة مهشمة ..

اتهموا القبطان الأمريكى بسوء التصرف ، لكن الجميع كانوا يعرفون أنه قبطان بارع يحسن الملاحة .. الخطأ البشرى غير وارد هنا ..

هل أغرق القبطان السفينة لينال مبلغ التأمين ؟.. للأسف لا .. مبلغ التأمين كان ملاليم لا تستحق هذه المغامرة ..

هجوم القراصنة فكرة مرفوضة كما قلنا ..

التصق لقب النحس بهذه السفينة بعد هذا .. كل من تعامل معها مات فى ظروف مؤسفة ، فى النهاية لم تجد مشتريًا وتركوها حتى تسوست وتلاشت ..

بعد أعوام درس العلماء مسار السفينة فعرفوا أنها كانت تمر عبر منطقة تقع بين برمودا وبورتريكو وولاية فلوريدا الأمريكية .. مثلث متساوى الأضلاع ...

هذا جعلهم يعتقدون أنهم وجدوا التفسير الصحيح لاختفاء الطاقم ..

نحن نتكلم عن مثلث برمودا إذن !

* * *

أنت تعرف مثلث برمودا حتمًا ..

آلاف الكتب التى تحكى عن الأساطير الفورتية حكت عنه ، وهناك من ربطه بالجان والمسيخ الدجال .. إلخ ..

هناك من يزعمون أنه لغز الألغاز ، وهناك من أجروا إحصائيات دقيقة خرجوا منها بأنه قصة وهمية وحوادث الاختفاء فيه ليست أكثر من أى موضع آخر من المحيط .. من هؤلاء المشككين لورانس كوش ، الباحث فى جامعة أريزونا.

فى العام 1945 حدثت الحادثة الأشهر عندما اختفى سرب طائرات أمريكية يعبر مثلث برمودا. خمس طائرات اختفت ثم اختفت طائرة ذهبت للبحث عنهم .. وانفجرت طائرة أخرى ذهبت للبحث عن كل هذه الطائرات ..

هكذا دخل مثلث برمودا إلى الثقافة الشعبية ولم يخرج. أنت رأيت فيلم (لقاءات حميمة من النوع الثالث) حيث تخيل ستيفن سبيلبرج أن هؤلاء الطيارين كانوا مخطوفين على متن سفينة

فضاء .. وقد عادوا فى نهاية الفيلم فى عملية إعلان عن حسن النوايا ..

وفى العام 1964 كتب فنسنت جاديس المقال الأشهر عن مثلث الشيطان .. وصار كل واحد فى العالم يعرف هذا المثلث ، وانهالت نظريات التفسير بدءًا بالجان مرورًا بالكائنات الفضائية .. مرورًا بقراصنة البوكانير كما فى قصة (الجزيرة) لبيتر بنشلى .. لقد شكل المثلث اللعين كنزًا لكتاب الخيال العلمى والسينما ولولاه لأفلس الجميع وخرب بيتهم ..

فيما بعد ظهرت الحاجة إلى كشف هذا السر بشكل واضح وحاسم .

كنت أنا من المهتمين جدًا بقصة السفينة (مارى سلستى) ، فهى خليط عجيب من النحس والاختفاء الغامض .. لها نفس مذاق غرق التيتانيك ، لكن تمت دراسة غرق التيتانيك جيدًا ونحن نعرف اليوم أنه لا توجد أسرار .. بينما ما زال لغز هذه السفينة محيرًا فعلاً ...

بالطبع تعرفون ما حدث .. لقد اتصلت بى مجلة أسكتلندية مهتمة بالظواهر الخارقة تطلب أن أشارك فى بحث مدقق عن

تلك الظاهرة .. ظاهرة مثلث برمودا. أنا طبيب عربى ولى خبرة عريقة بهذه الأمور .. لديهم فى الفريق عدة جنسيات ومعتقدات دينية وثقافية. هذه الأمور ؟.. صدقنى أنا لا أعرف ما هذه الأمور!! .. بالطبع حتى هذا الجزء كنت متأهبًا للفرار والاعتذار. لن أذهب لآخر العالم لأفتش فى أساطير بحارة ثملين على الأرجح ..

لكن ....

هناك فريق ممتاز من عدة جامعات ، وكان هناك جزء مهم من الدراسة يقوم على استعمال السونار لدراسة الأعماق فى تلك المنطقة ..

تعرفون طبعًا من الأستاذ الأسكتلندى المهتم بالسونار ودراسات الأعماق .. ماجى ماكيلوب .. من سواها ؟

وهكذا وجدت نفسى أقبل العرض بحماس غريب ...

ـ 2 ـ

أمامك أيها البحار .. أمامك محيط السلام ..

ادخل بقاربك .. ادخل وارفع راية الذهاب نحو السلام ..

(طاغور)

* * *

الألم يعتصرنى ..

أوشك على فقدان الوعى .. لا حل لهذه المعاناة سوى فقدان الوعى ، لكنى من الأغبياء الذين لا يغيبون عن الوعى عندما يقسو الألم .. يظلون متنبهين. قالوا لنا فى كلية الطب إن المحترق يموت على الأرجح بصدمة عصبية قبل أن يشعر بالنار تحرق لحمه ، لكنى أختلف .. سوف أشعر بكل شعرة وهى تتفحم .. كل عضلة وهى تتقلص ..

ألم شديد .. شدييييد ..

تصفيق حاد من شياطين جانب النجوم . لوسيفر يردد فى سرور : إننى لهذا المشهد أسعد وله قلبى يطرب .. إن لوسيفر هذه الليلة ـ والحق يقال ـ سعيد ...

تصفيق حاد .. صفير ..

لا تمت يا رفعت .. لا تمت بهذه السرعة .. نريد أن نتلذذ أكثر.

سقطت على المنضدة الصغيرة التى وضعتها فى ركن الغرفة. سال الحبر ليغرق (أسطورة طفل آخر) التى كنت أكتبها ..

وفى النهاية تشبثت بالملاءة .. تنفست بقوة إلى أن استعدت تنفسى .. لن يشمت فى هؤلاء الملاعين .. ليس الليلة ...

وتحسست الكتاب المثبت إلى خصرى . قد أفقد الوعى ويجردوننى من الثياب وينزعون هذا الكتاب .. سوف أصير تحت رحمة لوسيفر التى لا وجود لها أصلاً ، لكن لماذا القلق ؟.. هو يعرف أن الكتاب له فى النهاية ...

وبينما أنا غارق فى سكرات الألم تذكرت ما حدث فى ذلك العام ...

* * *

عندما التقينا فى فلوريدا لم أصدق ..

لقد اعتدت أن أرى ماجى فى ظروف خاصة هنا على أرضى أو فى أرض أبيها ، لكننا تقابلنا هذه المرة فى الولايات المتحدة .. لا أحمل أى حب لهذا البلد كما تعلم . لكن ماجى كانت هناك لتخفف المعاناة .

المشروع كان عملاقًا بالفعل ... تشرف عليه البحرية الأمريكية بالتعاون مع هيئات علمية عدة ، وهذا يعنى أن دورى كان أقرب لـ (الفاسوخة) لو سمحت لى بهذا التعبير. لست خبير غطس وليست لى خلفية عسكرية ولا أفقه فى الطيران ، ولست عالم فيزياء . باختصـــار لا دور لى سوى أن أكون قرب ماجى فى فلوريدا على حساب المجلة الأسكتلندية والجيش الأمريكى ..

هيئة المشروع تدعى BTE وهى الحروف الأولى من عبارة (استكشاف مثلث برمودا) . مدير المشروع جنرال أمريكى ممن تراهم فى السينما ، اسمه (ويليام وايلر) .

كانت خطة المشروع تقوم على خروج عدة سفن عملاقة تمخر فى مثلث برمودا ، وتقوم بإرسال موجات سونار للأعماق والتقاطها ثانية . كان هناك فريق آخر يدرس فرضية ثلج الميثان الذى يكسو قاع المحيط فى تلك البقعة والذى قيل إنه يسبب

اضطرابات تغرق السفن .. انفجارات هذا الغاز تغير كثافة الماء فلا تصير السفن قادرة على الطفو فيه وتغوص .. قد يفسر هذا غرق السفن ، لكن كيف يفسر خلوها من الطاقم ؟.. كيف يفسر سقوط الطائرات ؟

استغرقت الدراسات ثلاثة أسابيع ، ولا أعرف بالضبط دور ماجى فى هذا لكنه كان بالغ الأهمية .. الفتاة الرقيقة ماجى يمكن أن تكون مهمة ومرعبة ..

كل شىء كـــان سريًا .. معظم أعضـــاء الفريق لا يعرفون ما يقوم به الآخرون ..

كانت ماجى تبدو قلقة مهمومة .. تمضى معظم يومها فى العمل ودراسة تقـــارير السونار كما ترسلها السفن التى تجوب المثلث ، ولم تكن قد انضمت للفريق الذى يبحر فى المحيط .. كانت تمارس عملها فى القاعدة فى فلوريدا ..

بعد أيام خرجت معها بعض الوقت فى نزهة قصيرة ..

مشينا وسط الغابات متشابكى الكفين كأننا عاشقان قديمان ، ووجدت شجرة صفصاف وارفة ، وحول جذعها تتواثب سناجب صغيرة مرحة .. دعوتها للجلوس هناك ..

جلست واضعة ذقنها على ركبتيها وابتسمت لى .

ـ « للأبد ؟.. »

تساءلت :

ـ « ماذا ؟.. »

ـ « ستكون ملكى للأبد ؟.. »

ـ « وحتى تحترق النجوم كلها وحتى .... »

لكنها لم تكن تصغى .. كانت تفكر فى شرود ..

قطعت جملتى وقلت لها :

ـ « يبدو أنك قلقة .. »

صمتت قليلاً ثم قالت فى حذر :

ـ « ما وجده السونار مريب فعلاً .. أنا واثقة من أننى أهذى .. لكن النتائج لا شك فيها .. كثيرون رأوا الصور معى ، وقد التزمنا بالسرية وعدم تسريب أى شىء للصحافة خاصة تلك المجلة الأسكتلندية . سوف ينالون ما دفعوه من مال لكن ليس الآن .. »

ــ « وما هو المريب حقًا هذا ؟.. »

ــ « وجدنا هرمين !... هرمين من زجاج ! وهما على عمق كيلومترين !.. »

تصلبت مفكرًا .. هذا سخف بالتأكيد. لن ندخل فى عالم هذيان إدحار رايس بوروز .. لن ندخل عالم أطلنطيد المفقودة وكل هراء الخيال العلمى السابق ...

فى ذلك الوقت لم أكن قد سمعت عن د. (مايرفيرلاج) .. عالم أمريكى خبير فى أعماق المحيطات ، ظهر وأعلن أنه وجد هرمين من الكريستال فى قاع المحيط . البعض صدقه والبعض قال إن القصة كلها هذيان .. إن فيرلاج شخص غامض يشك كثيرون فى وجوده أصلاً ، خاصة أن اسم فيرلاج بالألمانية معناه (ناشر) ..

كان عقد كامل من الزمن ينتظر اكتشاف الأخ فيرلاج ، لكن ماجى وجدت مع فريق عملها نفس الشيء المحير فى ذلك الوقت ..

ــ « هذا سخف يا عزيزتى !.. »

ــ « ربما هو سخف لكنه حقيقى .. قل هذا لصور السونار التى عادت بها السفن. هذان الهرمان هما مركز المثلث بالضبط !.. »

ــ « هذا ممتع .. وما حجم الهرم ؟.. »

ــ « ثلاثة أمثال هرم خوفو لديكم .. »

قلت فى غيظ وأنا أقذف بعض الفول السودانى للسناجب :

ــ « هل تدركين ما تقولين ؟.. هناك أمة تعيش فى القاع وأفرادها هم الذين يخطفون السفن. لابد أنهم قوم مزودون بخياشيم وزعانف .. أليس كذلك ؟.. »

فكرت قليلاً ثم أخرجت علبة سجائر وأشعلت لفافة تبغ . كانت هذه هى الفترة القصيرة من عمر ماجى التى كانت تدخن فيها ، ربما لأن التدخين كان وقتها من لوازم الأناقة الأنثوية . قالت :

ــ « النظرية التى يعتنقها معظم الفريق هى أن هذه أمة بادت وغمرها المحيط .. هذا هو أقرب سيناريو محتمل . من يدرى ؟.. ربما كان هذا هو مكان قارة أطلنطيد الغارقة فعلاً .... »

ــ « أفلاطون قال إن أطلنطد عند أعمدة هرقل ... أى عند جبل طارق .... »

ــ « ربما كان أحمق .. »

كان مزاجى قد تعكر نهائيًا .. لا أشعر بأى شىء رومانسى بعد هذا الكلام الغريب. الكلام الذى يشكل تحديًا لمنطقى .. أنا رأيت أغرب الأشياء فى حياتى ، لكن عندى نفورًا طبيعيًا من كتب الأسرار هذه .. من بنى الهرم ؟.. أين أطلنطد ؟.. الأطباق الطائرة ... إلخ .

هل نحن على باب اكتشاف يغير وجه البشرية للأبد ؟

ـــ 3 ـــ

كنت أفرغ معدتى بلا توقف فى الحمام ..

هذا هو تأثير عقار فينكريستين الذى يعطونه لى . يشبه الأمر أن يمشى قطار على جسدك عدة مرات ، والمشكلة أن هذا يحيل المعدة لبركان ..

فى ذلك اليوم منذ أعوام ، كنت أفرغ معدتى بذات الشكل على حاجز السفينة (جيرونيمو ــ 3) التى تتجه إلى بورتريكو ، راسمة قوسًا طويلاً يتعمد المرور فى قلب مثلث برمودا اللعين .. لست ممن يصابون بدوار البحر عادة ، لكنى فى ذلك اليوم فهمت معنى الكلمة ..

لم أتصور أن معدتى تحوى هذا كله .. لابد أننى أفرغ قطعة البسكويت التى أكلتها فى فسحة ذلك اليوم من الصف الثالث الابتدائى .. وجاءت ماجى تقف جوارى تراقبنى ثم سألتنى :

ــ « هل أنت بخير ؟.. »

قلت متحشرجًا :

ــ « لم يسألنى أحد قط أثناء القيئ عما إذا كنت بخير أم لا .. أنا أكره الأسئلة الغبية .. »

ــ « أعنى : هل تعتقد أنك تحتضر ؟.. »

ــ « لا .. »

قالت بلهجة عملية ، وهى تربت على كتفى :

ــ « اليــوم يبدأ أكثر الأجــزاء إثارة .. البحرية الأمريكية سوف ترسل كرة أعماق .. هــل تعرف كرة الأعماق كالتى كان د. (بيب) يستعملها ؟.. سوف تهبط هذه الكرة لمسافة هائلة .. تصور وتحاول أن ترسل لنا شيئًا .. »

ابتلعت ريقى وقلت :

ــ « أوووع .. سيدلونها لمدة كيلومترين ؟.. »

ــ « بل لكيلومتر واحد .. لا نملك القدرة التقنية على إرسال كرة أعماق لعمق كيلومترين .. »

عند العاشرة صباحًا وقفنا نراقب الكرة تهبط بينما الونش يئن من ثقلها .. الكرة تتدلى بحبل غليظ طبعًا يلتف حوله كابل يشبه

الحبل السرى هو الذى ينقل ما تلتقطه الكاميرا فى مقدمة الكرة . من حسن الحظ أنه لن يكون بداخلها بشر .. د. بيب كان فى كرته .. وهى شجاعة لا توصف ، لكننا اليوم نشبه من يرسل طائرة بغير طيار ..

قال لنا القبطان إن بوسعنا الذهاب إلى غرفة المراقبة لمشاهدة ما تلتقطه الكاميرا ..

على قدمين من مطاط مشيت مع ماجى لنهبط عدة درجات ، فنجد أننا فى غرفة خانقة يغمرها لون أزرق كئيب .. هناك حشد من الشاشات وخمسة علماء أو مصورين ..

على الشاشة رأينا المياه تزداد سوادًا .. الكرة تبتعد عن نور الشمس وتدخل عالمًا لم نره من قبل ..

أسماك تسبح نحو العدسة .. فتتوهج فى ضوء الكشاف المضاء داخل الكرة ، ثم تبتعد . مخلوقات غريبة جدًا. لا تتوقع أن ترى هنا سمكة بلطى أو بورى .. كلما توغلنا لأسفل صار المشهد أكثر شناعة والأسماك كأنها جاءت من أعماق كتب الباليو إكولوجى ....

ساد الصمت .. أشعلت ماجى لفافة تبغ وراحت تراقب الصورة المهزوزة على الشاشة ..

قالت لى وهى تضغط على بعض الأزرار :

ــ « سوف نشغل السونار ليمسح القاع .... »

ثم راحت تراقب الشاشة التى بدت عليها أشباح مبهمة تذكرك بصور بطن الحامل .. لا أفهم شيئًا ألبتة ، لكنها تتبادل حوارًا تقنيًا مع عالم أمريكى يجلس جوارها ..

فجأة تجمدت ..

استدارت لنا وقالت بصوت مبحوح :

ــ « هناك كائنات تتحرك !.. »

* * *

قلت لماجى وأنا أرمق الشاشة :

ــ « ما الغريب فى هذا ؟.. هناك أسماك كما تعلمين .. »

ــ « لا .. هناك أشـياء تبدو كبشر .. بشر فارعى القامة يخرجون من القاع !... »

ــ « هل عدنا لخرافة أطلنطيس إذن ؟.. »

ــ « لا أعرف .. أنا أصف ما أراه .. »

يخرجون من القاع ؟؟؟؟

وفجأة صرخ القبطان كالفتيات صرخة رفيعة طويلة ، فاستدرنا .. كانت هذه واحدة من شاشات الفيديو التى تصور ما تراه الكاميرا فى الكرة ..

رأينا جميعًا فى ضوء الغرفة الخافت أشنع وجه يمكن أن تراه .. وجهًا يذكرك بالأسد .. بالجمجمة .. بالثور الهائج .. بالغيلان ...

هذا الشىء يحملق فى عدسة الكاميرا للحظة ثم يتحرك بجسد حرشفى مخيف لأعلى ...

تبادلنا النظرات .. ما هذا الذى رأيناه ؟

فجأة تلقى القبطان اتصالاً من الهاتف الصغير فى الغرفة .. مد يده يلتقط السماعة ، أصغى بعض الوقت ثم نظر لنا فى قلق وقال :

ــ « مجال كهرومغناطيسى غريب .. البوصلة تلفت .. معظم الأجهزة لا تعمل بكفاءة .. ماذا يدور هنا ؟.. »

قلت له في عصبية :

ــ « ارفع الكرة .. الآن ..!.. »

بدا أنه اتخذ نفس القرار ، فاتجه لمكبر الصوت وأصدر القرار لمشغلي الونش ...

سمعنا الصرير وبدأت السفينة تهتز .. ونظرنا للشاشة فرأينا الكاميرا ترتفع فوق مستوى الماء .. نرى نظرة بانورامية للبحر من أعلى ثم دارت الكاميرا مع دوران الكرة فرأينا مشهدًا عجيبًا ..

ــ « يا إلهي الرحيم !.. »

أولاً كان الدخان يتصاعد بكثافة من سطح المحيط .. غاز غريب لن أندهش لو تبين أنه غاز الميثان .. ثم دارت الكاميرا أكثر ...

صرخ القبطان في الهاتف :

ــ « شـغل المحركات فـورًا .. أقصى سرعة .. أطلقوا نداء استغاثة (ماى داى) .. »

لكن بدا أنه ما من أحد يصغي له. كان المشهد مفزعًا ..

على سطح السفينة كان البحارة يصرخون ويركضون ... ما الذي يطاردهم ؟.. لا أعرف .. حتى اللحظة لا أستطع وصفه .. ألعن مجموعة من الشياطين والكائنات التي تشبه المذءوبين ، وكائنات أقرب لمصاصي الدماء وخفافيش آدمية ...

كان البحارة يتساقطون كالذباب ....

كانوا يتمزقون ...

ورأيت كائنًا من تلك الكائنات يرتفع للسماء بجناحين كجناحي وطواط ...

سمعت الضحكة السوداء في أذني .. صوت كالببر يغريك بأن تسمع أكثر ... صحت وقد بدأت أفهم :

ــ « الهرم !.. هذه فتحة لجانب النجوم ..!.. الهرم فتحة تخرج منها كائنات جانب النجـوم لعالمنا !.. عنـدما تمر سفينة فوق مركز المثلث في لحظة بعينها تهاجمها هـذه الكائنات .. بعضها يحلق فلا غرابة في أنهـا تسقط الطـائرات أو تعطل محركاتها !.. ما نراه أمامنا هو إعادة تمثيل لما حدث للسفينة (مارى سلستى) .. »

قالت ماجى فى عدم فهم :

ـ « لا أعرف ما جانب النجوم هذا .. »

ـ « هى فكرة راسخة فى التراث الرومانى والمجرى لكنها حقيقية .. أنا ذهبت هناك من قبل .. لا وقت للشرح .. إنهم قادمون لنا !.. »

هتف القبطان والعرق يغمر وجهه :

ـ « ورجالى !.. »

ـ « لقد ماتوا بالفعل .. صدقنى .. أنا أعرف ما أقول .. علينا الآن أن ننقذ أنفسنا. يجب غلق هذه الغرفة بإحكام .. »

قالت ماجى وقد بدأت تتوتر :

ـ « وهل يصمد أى باب أمام هؤلاء ؟.. »

ـ « أعتقد أنه سيصمد .. فلنلزم الصمت ولنأمل ألا يشموا رائحتنا .. »

أغلقنا الأبواب الثقيلة بإحكام ، ثم قبعنا نصغى لصوت الصراخ والتمزيق والاستغاثة .. للأسف كان كادر الكاميرا مظلمًا الآن

ويبدو أن الممسوخ قطعت الحبل السري .. وارتجف القبطان وهمس وهو يعض على شفته السفلى :

ـ « رجالى .. كان يجب أن أموت معهم .. »

قلت فى غلظة :

ـ « صه .. لن تفيدهم بشىء بهذه المواقف المسرحية .. لا شىء يضايقنى مثل الحماقة. سيموتون هم أو نموت جميعًا .. عليك أن تختار. ربما تنتهى المذبحة وترحل تلك الكائنات .... »

فجأة سمعنا صوت محرك طائرة عمودية فى الخارج. بدأت أنفاسنا تهدأ قليلاً ، وتوقعنا النجاة .. هنا .. بووووم !... سمعنا صوت انفجار مدو اهتزت له السفينة .. ثم خمد الصوت ..

قلت همسًا :

ـ « سقطت على الأرجح .. رقم جديد يضاف لضحايا مثلث برمودا .. »

يمكن تخيل ما حدث لطاقم الطائرة .. أسوأ شىء أن تعتقد أنك منيع محصن فوق الأجواء ثم يقتحم شيطان قمرة القيادة ..

لابد أن الكابوس استمر ساعات لا حصر لها .

كنا هناك فى الظلام نسمع صوت العواء والزئير والخوار والصراخ والتمزيق والأنين .. كنا هناك فى الظلام نرتجف .. كنا هناك فى الظلام نحاول التماسك .. أعتقد أن طاقم السفينة هلك كله. شياطين جانب النجوم لا تبقى شهودًا .. لكن ربما لم تستطع الوصول لنا فى هذه الغرفة .. ربما لم تدر بوجودنا ..

من هلكوا كان حظهم أفضل بالتأكيد من حظ من تم جرهم إلى جانب النجوم ليعيشوا هناك للأبد .

ساد الصمت من جديد فى النهاية ..

وعندما جاء الصباح التالى لم يجسر أحدنا على الخروج ليعرف .. لكننا سمعنا محرك طائرة عمودية أخرى ، وبدأ جهاز اللاسلكى يصحو .... لقد جاءت طائرة أخرى تبحث عنا .. وهذه المرة لم يحدث انفجار مروع ولم تسقط ....

* * *

أمضينا أيامًا عدة نحكى القصة فى فلوريدا .. لم يستطع أحد فهم أى شىء . ما يعرفونه هو أن طاقم السفينة اختفى كله فى ظروف غامضة وأن طائرة هليوكوبتر جاءت لنجدتنا تحطمت ..

احك لهؤلاء القوم العصبيين نافدى الصبر عن جانب النجوم ، ولتر كم هم ظرفاء يصدقون كلامك لأنك أنت ... بالطبع لا أحد يصدق حرفًا مما أقول ..

فى النهاية قرر الجنرال (وايلر) اعتبار العملية فاشلة ، يتم تأجيلها إلى وقت آخر . جل ما استطاع فهمه هو أن مخلوقات بحرية متوحشة هاجمت السفينة .. وبدا له أن هذا جدير بحملة أخرى من علماء الأحياء المائية.

كنت أعرف أنهم لن يجسروا على عمل حاسم .. مثل قصف المنطقة بقنبلة ذرية ، لأن المنطقة مأهولة وتقع على خطوط ملاحية هامة .. سوف تبقى الفجوة مفتوحة وسوف تتدفق منها المسوخ إلى يوم الدين ، وهكذا تدفع بعض السفن ثمنًا غاليًا بينما تنجو أخرى بمعجزة ..

المجلة الأسكتلندية ظفرت بتقرير ملفق وغامض .. تقرير يثير خيال القراء لكن من دون حقائق كالتى رأيناها ولهذا لم يعرف

أحد قصة الهرمين إلا بعد أعوام مع (ماير فيرلاج) لو كان له وجود فعلاً .

أما نحن فقد أجبرونا على تقديم وعد بأن تظل القصة سرية .. يحب الأمريكان لفظة Classified بخاتمها الرسمى الصارم كما تعلم ..

لن نحكى أى شىء مما رأيناه .. وقد التزمت بهذا الوعد لفترة طويلة جدًا ، لكنى اليوم أشعر بحاجتى للتخفف من وعدى ، خاصة وموعدى مع الرحيل يقترب ، وكل الناس تعرف تقرير (فيرلاج) الآن ..

هذا هو تفسيرى الخاص للغز مثلث برمودا .. ربما هو التفسير الوحيد وربما هو خليط من عدة عوامل مثل الموجات الكهرومغناطيسية وغاز الميثان . بعض العلماء يعتقد أنه لا يوجد لغز آخر لأن الدراسات الإحصائية تؤكد عدم وجود اختلاف بين معدل غرق السفن فى المثلث وخارجه .. حسن .. موافق بشرط أن يفسروا لنا حادث السفينة (مارى سلستى) .

فجوات جانب النجوم مخيفة دومًا ، لكنها فى كل مكان وعلينا أن نقبل وجودها ونتفاداها قدر الإمكان . فقط تأكد من أنه لا توجد فجوة فى بئر السلم فى داركم أو مدفن أسرتك .. تأكد من أن الفجوة ليست فى خزانة ثيابك ...

(٤)

عزت والنحات

— 1 —

فى حديقة المستشفى جلست .. مقعد خشبى ومنضدة صغيرة هناك . لا أشعر بأى ألم .. اقترحت على الممرضة أن أجلس فى الشرفة ، لكنى كنت أشتهى الشعور بالعشب تحت قدمى . الشعور الندى المحبب .. رائحة الأرض .. رائحة الأزهار مع دنو المساء ..

جو حزين مرهف يوشك على أن يبكى ..

هناك قط وقف يرمقنى فى شك ، ثم تثاءب وابتعد ..

رائحة الجو هذه .. رائحة الجو العذبة هذه .. تعتصر قلبى اعتصارًا . يحز فى نفسى أننى سأترك هذا كله عن قريب ، لكن أعتقد أنه لن يكون عندى وقت لإدراك ما فقدته. هل أعرف بعد الموت من أنا كما تساءل إيليا أبو ماضى يومًا ؟..

هناك على مقعد قريب فى الحديقة جلس د. سامى يفعم صدره بالهواء ..

الطبيــب النفسى السكندرى الراقى ، الذى مررت بأغـرب القصص فى الفيلا التى يعيش فيها .. منذ أعوام اجتمعنا عنده

فى ليلة عاصفة وراح كل منا يحكى قصته مع الرعب ، وأى نوع من الرعب يثير فزعه أكثر من سواه .. وفى مرة أخرى كان هناك حفل غريب الشكل .. حفل بدا كأنه تكرار للتاريخ الفرعونى .. فى مرة كان زميلى عضوًا فى ناد للغيلان وأنقذته بصعوبة بعد أن كاد يصير غولاً ..

أى تاريخ طويل ! تفاصيل عديدة لدرجة أننى لا أتذكر الكثير ..

وضع د. سامى ساقًا على ساق ونظر فى ساعته .. بالتأكيد يتعجل العودة للإسكندرية. كدت أبكى .. ابق معى بعض الوقت أرجوك .. أنا بحاجة لصديق ...

كانت هناك أغنية قديمة يطلب فيها المطرب من طائر أبى الحن أن يظل معه وقتًا أطول ، ثم يتذكر أن من مصلحة الطائر أن يطير مبتعدًا ...

قال لى وهو يرفع جوربه :

ـ « هل أنت خائف يا رفعت ؟.. »

سؤال غريب .. قلت له فى صدق إننى لست خائفًا . لست خائفًا من تجربة الموت لكننى أخشى الحساب .. أخشى اللحظات الرهيبة القادمة ..

ثم أضفت مستدركًا :

ــ « طبعًا لا أريد أن أتلوى ألمًا لحظة الاحتضار .. أريد نهاية نظيفة كلحظة انقطاع الكهرباء .. »

كان يعرف وأنا أعرف أن هذا احتمال واه جدًا .. الألم قادم لا يؤخر موعدًا .. إنه موجود لكنه لم يتوحش بعد ...

ساد صمت ثقيل .. رائحة الليل المعذبة العذبة هذه ..

قال بعد قليل :

ــ « هل أنت نادم على عدم تكوين أسرة ؟.. »

ــ « بصراحة لا .. لم أشعر قط بحاجة إلى أن تكون لدى أسرة .. لا أعتقد أن جيناتى ثمينة لدرجة أنه لابد من بقائها على الأرض ، ولو كانت ثمينة فلابد أن إخوتى قد قاموا بدورهم وحافظوا عليها. ثم إننى لم أشعر قط بأننى وحدى . كان هناك دائمًا من يساعدنى .. »

ثم أضفت باسمًا :

ــ « هل تعرف قصة بلدينا الذى وثب بالمظلة وقيل له أن يشد الخيط على ارتفاع 300 متر ..؟.. نسى أن يشد الخيط ، ثم

تذكر ذلك على ارتفاع 10 أمتار .. هنا قال لنفسه : لا مشكلة .. عشرة أمتار ستكون هينة ويمكن وثبها !.. حياتى كلها تكرار لهذه القصة. تأخرت فى الزواج قليلاً ثم وجدت أنه لا بأس من استكمال الأعوام الباقية بلا زوجة .. »

ضحك طويلاً .. هذه مزية مهمة فى د. سامى .. وقاره وأرستقراطيته جعلاه لم يسمع معظم النكات. كل النكات جديدة بالنسبة له حتى (واحد جه يقعد على قهوة قعد على شاى) ...

قال لى بعد ما هدأ قليلاً :

ــ « لا تخف .. سوف تقهر هذه الأزمة .. »

قلت فى فتور :

ــ « انت لا تجيد الكذب يا صاحبى .. لست حزينًا .. كل شىء ينتهى .. فقط نهايتى اتخذت هذه الصورة .. لكن أرجو أن تسدى لى خدمة مهمة . أريد أن أجد د. رمزى حبيب .. اتصل به وقل له إننى هنا .. »

وعدنى بأن يبحث عن رمزى ... المشكلة هى أن هاتفه لا يرد ولربما كان خارج مصر ..

ثم نظر لساعته وطلب منى الإذن كي يعود إلى الإسكندرية .. فوافقت آسفًا .. طر يا طائر أبى الحن .. طر بعيدًا عنى ...

وجلست وحدى فى ضوء الغروب الخافت أرقب القطة التى ترقبنى. ولا أعرف متى جاءت الممرضة لتقودنى لغرفتى ...

* * *

بينما الممرضة تقتادنى للغرفة ، رأيت نهاية الممر تسبح فى ذلك الضوء الخافت السقيم ..

رأيته يمشى هناك مبتعدًا .. من ؟.. ليس د. سامى طبعًا .. إنه ذلك الطيف الذى رأيته جوار فراشى منذ أيام .. نفس الطيف المراهق .

قلت لها فى توتر وأنا أعتصر ذراعها بشراسة ضايقتها :

— « هل ترين هذا ؟.. »

قالت فى ضيق وقد توصلت لقرار بسيط هو أننى وقح أو ذئب :

— « هذا ماذا ؟.. »

— « الفتى الذى يمشى فى الممر .. »

تحول صوتها إلى كتلة من الثلج تنهال على رأسى :

— « لا يوجد فتى يمشى فى الممر لو كان الأمر يهمك !.. »

هكذا يمكن القول إننى دخلت مرحلة اختلال الحواس .. إذن فليمت قيصر .. قالها قيصر قبل أن يهوى أرضًا بطعنات المتمردين .. وخاصة طعنة بروتوس ..

كنت أخشى الخرف .. أخشاه كثيرًا .

ها هو ذا قد جاء ....

وفى الفراش رحت أحاول الكتابة بعض الوقت .. كنت فى تلك الآونة أسجل أحداث أسطورة العلامات الدامية . قصة كتاب نيكرونوميكون ، عندما خطر لى خاطر مروع .. هل عشت حقًا هذا كله أم أن حياتى كلها هلوسة ؟.. لربما كان هذا كله هذيانًا وقع فى الفترة الأخيرة تحت تأثير السرطان وتأثير العقارات المخدرة التى أعيشها ؟..

كم من مرة عشت حياة كاملة فى الحلم ، ثم صحوت لأدرك أننى لم أنم سوى ربع ساعة ؟. لربما اخترع عقلى الباطن ماضيًا كاملاً لى ؟

لكن هذا مستحيل .. معى عزت وماجى ود. سامى وقد زارنى كثير من أهل قريتى وأختى .. ما أنا فيه حقيقى .. لا شك فى هذا ..

بدأت أسترجع خيوط حياتى القديمة ..

قصة الدمية .. دمية الفتيش .. هناك أكثر من دمية فى حياتى كنموذج للسحر بالمحاكاة .. لكن هناك قصة دمية لم أحكها بعد ..

كنت مع عزت فى أحد المعارض بالإسكندرية .. أنت تعرف اهتمام عزت بالفنون التشكيلية .. النحت بالذات. صحيح أنه نحات فاشل (وصديق رائع) بالفعل ، ورأيى أن تماثيله قبيحة ، لكنه علمنى الاهتمام بهذا الفن .. وأعتقد أننى صرت أملك عين ناقد فنى محترف ..

كنت أمشى مع عزت بقامته النحيلة ومحياه القاتم بين المعروضات . يبدو أن كل فنان فى مصر قضى عدة ساعات

ليصنع خرشوفة مشوهة أو نمر بلا ذراعين ولا قدمين ولا رأس ولا ذيل .. كنت أشعر بملل رهيب ..

فجأة تصلب عزت وهو يرمق تمثالاً غريبًا ..

الواقع أنه جميل .. لو دققت النظر أكثر لأدركت أنه نحت بارع فعلاً. صورة كاريكاتورية جميلة للمطربة الجنوب أفريقية التى كانت فائقة الشهرة وقتها (ميريام ماكيبا) .. ماما أفريقيا ..

درت حول التمثال وبدأت أشهق .. أعترف أن هذا عمل متقن ..

هناك لدى الغربيين ما يدعى (متلازمة ستندال) .. أى الشخص الذى تتسارع أنفاسه ويوشك على فقد وعيه عندما يرى عملاً فنيًا متقنًا .. للمرة الأولى أفهم هذا المصطلح وأنا أرى عزت ..

دنا من البطاقة الموضوعة جوار التمثال وتفحصها .. وتلا الاسم بصوت عال :

ـ « بيتر كراكوس .. ماكيبا .. »

الاسم أجنبى كما هو واضح .. رنينه غريب فعلاً ... لا أعرف جنسيته ، وإن أمكن أن يكون يونانيًا ..

تركنى عزت وهرع إلى صاحبة القاعة يسألها عن بعض البيانات ، ثم راح يدون العنوان فى بطاقة صغيرة. بيتر كراكوس .. شارع (...) .. محرم بك ...

قال لى بلهجة متوسلة :

ـ « رفعت .. لا بد أن أقابل هذا الرجل. لابد أن أراه .. لو أردت العودة اليوم للقاهرة فأنا أعفيك من مرافقتى .. »

قلت له فى ملل :

ـ « لا مشكلة . سوف أوصلك هناك ثم نعود معًا بسيارتى .. لن أقود السيارة وحدى كل هذه المسافة ليلاً .... »

هكذا تم ترتيب الأمور ووجدت أن عزت أجرى اتصالاً بالنحات ، وبعد دقائق كنا ننطلق بالسيارة للقائه .. لم يقل حرفًا عن هذا الاسم العجيب .. هو فى غيبوبة إذن ...

عندما فتح لنا الرجل باب شقته عرفت أن هناك شيئًا غير مريح بصدده ..

— 2 —

كراكوس فى الستين من عمره .. ملامحه ضخمة غليظة .. أصلع الرأس تحيط بفمه لحية دائرية من طراز (دوجلاس) . نظرات ثاقبة عابثة قليلاً . هل تعرف صور أنطون لافى مؤسس كنيسة الشيطان فى أمريكا ؟.. يمكنك إذن أن تعرف كيف يبدو كراكوس ...

شعرت بتقلص فى معدتى والحمض يتزايد ..

قال لنا وهو يفسح الباب :

ـ « زيارتكما تسعدنى .. قلما يلقى المرء من يهتم بالفن لهذه الدرجة .. »

لم أستطع قط تبين لهجته .. غامضة .. لا يشوبها شىء من ناحية كونها عربية ، لكن ـ بالتأكيد ـ ليس هناك عرب كثيرون اسمهم كراكوس ..

سألته مباشرة ونحن ندخل :

ـ « أنت لست مصريًا يا سيدى .. من أين أنت ؟.. »

كنت أعـرف على الأقـل أنه ليس د. لوسيفر .. د. لوسيفر أتعبنى فى حياتى كثيرًا حتى صرت أشعر بوجوده بسهولة. ليس هو ...

قال باسمًا :

ــ « الجنسية لا تهم .. كلنا بشر نعيش تحت شمس واحدة ولنا مصير واحد .. »

هكذا عرفت أنه لن يرد .. سوف يعابثنى أولاً ... كنت أتصبب عرقًا بعد صعود هذا الدرج المرعب (طابقان) لهذا قدم لى بعض المناديل الورقية لأجفف وجهى ، وكان يبتسم بخبث ..

عزت لم يكن يتابع هذا الحديث .. كان يشهق وهو ينظر إلى التماثيل التى تناثرت فى المرسم. تحف فنية حقيقية . الحقيقة أنه كان على وشك دخول نوبة ستندال أخرى ..

الشقة لم تكن فاخرة جدًا ، لكن لها ذلك الطابع المحبب للنفس الذى يميز أتيليهات الفنانين. فى كل ركن قطعة لم تكتمل أو لها قصة .. على الجدار أوراق معلقة مثبتة بدبابيس ضغط عليها إسكتشات عدة بقلم من الفحم. هناك أحجار فى كل ركن .. هناك

تماثيل خشبية .. هناك معدات نحت وأزاميل .. هناك علب طلاء فارغة امتلأت حتى الحافة بأعقاب السجائر .. هناك جو يعبق بالدخان. هناك جهاز تسجيل عملاق يردد أغانى أم كلثوم ..

لا أعـرف من هو كراكوس هذا لكنه يستمتع بالحياة كفنان حقيقى ..

مشى الرجل معنا وهو يراقب تعبيرى وجهينا فى استمتاع ورضا ، ثم إنه بدأ يعد لنا الشاى على موقد بريموس صغير .. شاى الفنانين هذا حيث يتم وضع مسحوق الشاى بكف اليد .. أرجو أن يقلل كمية الصراصير فهى تتعب معدتى ..

رجل غير متزوج .. هذا واضح .. لا أحد يملك هذا العالم ويتزوج. لكن منظره وغـد .. هنـاك نساء ماجنات كثيرات حبيسات خلف هاتين العينين . لا بد أن له امرأة مختلفة كل يوم .

الجو قريب جدًا من مرسم عزت مع اختلاف المستوى الفنى طبعًا .

أما عن التماثيل فكانت تتناثر فى كل ركن ..

كانت هناك تماثيل فتيات مستحمات يشعرن بالخجل ويغطين أجسادهن في خفر. لا أفهم في أنواع الصخور لكن أعرف هذه الخامة السوداء .. يبدو أن تمثال خفرع في المتحف المصرى من نفس الخامة ..

هناك تمثال رجل يسقط على الأرض ويصرخ .. هناك كلب يتلوى ..

أتذكر مشاهد كهذه من بقايا مدينة بومبى ..

لكن هذه كلها أعمال تقليدية .. بارعة جدًا لكنها تقليدية ، لكن السحر كل السحر كان في تلك التماثيل الكاريكاتورية لأشخاص تشعر أنك تعرفهم .. كان هذا فنًا جديدًا وقتها بالنسبة لى .. وجه شخص تشوهه وتبرز عيوبه بشدة ثم تصنع تمثالاً مجسمًا لهذا الوجه .. هناك تمثال أو اثنان بهذا الطابع في متحف محمد محمود خليل ..

هذا رجل بارع فعلاً ..

كانت هناك كاميرا مثبتة إلى حامل ، وكشاف ضوء ومظلة ..

قال وقد رأى اتجاه نظرى :

ــ « أتعامل مع عدة مجلات .. هذه طريقة جديدة كالرسم الكاريكاتورى .. تمثال مجسم للوجه .. »

أما عند باب الغرفة فكان هناك كلب ممشوق يقف في وضع متنبه .. يذكرك جدًا بتمثالى ابن آوى على باب مقبرة توت عنخ آمون .

قال كراكوس :

ــ « أنت تعرف ارتباط ابن آوى بالتحنيط عند الفراعنة .. الإله أنوبيس ليس سوى رجل له رأس ابن آوى .. »

قلت في ملل لأن هذه معلومات أعرفها :

ــ « المصريون القدماء لاحظوا أن ابن آوى يرتاد المقابر دومًا بحثًا عن رزقه .. لهذا اعتقدوا أن له دخلاً بالتحنيط .. هذا مفهوم .. »

قال لى كراكوس وهو يناولنى كوب شاى صغيرًا ساخنًا :

ــ « لقد تشرفت هاتفيًا بمعرفة صاحبك .. لكن لم أعرف من أنت بعد .. »

قدمت له نفسي فأخرج قلمًا صغيرًا ودون الاسم في مفكرة ..

في الغرفة المجـاورة وجـدت مشهدًا غريبًا بعض الشيء .. عددًا من الجماجم على منضدة .. سبع جماجم على وجه التحديد . كل جمجمة في محجريها شمعتان قصيرتان . يمكن أن تشعل الشموع ليصير التأثير مفزعًا .. هنـاك فيلم رعب قديم مخيف اسمه (جماجم جوناثان دريك السبع) . كان الساحر يحبس أرواحًا في الجماجم ويستردها عندما يشعل الشموع .. وكان الغرض هو عرض في الملاهي يعتمد على أصوات مختلفة. ألا ترى أن التشابه قوي جدًّا ؟

للأمانة كانت هناك عظام ملقاة هنا وهناك .. مما يجعل مشهد الجماجم مبررًا نوعًا .. كراكوس نفسه قال لي :

ــ « فن النحت يرتبط بعلم التشريح جدًّا . فيما مضى كان الفنان يدرس التشريح في روما قبل أن يبدأ النحت .. »

هذا مفهوم .. لكن سبع جماجم ؟.. ولماذا الشموع ؟.. الأمر يبدو أقرب للسحر الأسود بالنسبة لي .. لكن سأظل صامتًا ..

ازداد الشك عندما رأيت مجموعة من الدمى القماشية متقنة الصنع معلقة فوق مشجب .. لو لم تكن هذه دمى (فتيش) فماذا تكون ؟

كان عزت قد أنهى جولته المنبهرة .. أحب هذا فيه كثيرًا . هناك درجة من الغرور وضيق الأفق لدى كل فنان تجعله عاجزًا عن رؤية تميز الآخرين .. تجعله مغلقًا لا يرى سوى نفسه ، ويظلم الموهوبين الذين هم مثله أو أفضل .. لكن عزت يختلف .. يمكنه أن يصرخ لو رأى عملاً فنيًا متقنًا .. وكان دومًا يردد مقطع شعر صلاح جاهين :

ــ « أنا أحب أقـول الشعر ف الحلوين .. والحلو أقول له يا حلو ف عيونه .. »

أعلن عزت أن هذه الجرعة من الانبهار تكفيه. فقط يتمنى أن يسمح له كراكوس بالعودة من وقت لآخر ..

قال كراكوس في لطف :

ـ « بالتأكيد .. بيتى مفتوح لك فى أى وقت . اسمح لى بأن أقدم هدية صغيرة .. »

ودخل غرفة داخلية ثم عاد حاملاً صندوقًا صغيرًا مغلفًا بورق أصفر ..

تناول عزت الهدية فى رضا .. وشكر الفنان وانصرفنا ...

ـ 3 ـ

الغابة عميقة مظلمة عذبة ..

لكن لدى مواعيد يجب أن أفى بها ..

وأميالاً يجب أن أقطعها ..

قبل أن أنام ...

روبرت فروست

* * *

فى القاهرة احتجت لوقت طويل جدًا حتى يفيق عزت من انبهاره.

فى الطريق للبيت تصرفنا كالعزاب الحقيقيين ، وابتعنا بعض الجبن والزيتون والخبز . فى شقة عزت أعد لنا الشاى بالصراصير ورحنا نلتهم عشاءنا بسرعة .. أنا مرهق فعلاً من القيادة. سوف أتنـاول عشائى وأنام ولتكونن من الليالى النادرة التى أنام فيها ليلاً !

لما فرغ عزت من هذا فتح الهدية التى جلبها معه .. كانت عبارة عن كف .. نحت لكف من حجر البازلت الأسود ـ لو كنت على حق ـ شديد الإتقان . أعتقد أنها تصلح كمطفأة سجائر كذلك ..

فى الواقع لست متحمسًا جدًا للنحت القريب جدًا من الواقع .. كل الفنون القريبة من الواقع تحدث غصة فى حلقى ، لأننى لا أشعر بوجود الفنان فى هذا كله ..

قال عزت وهو يتفحص الكف :

ـ « مذهلة .. هذا الرجل كارثة .. »

قلت مفكرًا :

ـ « هو كارثة فعلاً لكن ليس كما تقول أنت .. كراكوس .. من أى بلد جاء هذا ؟.. دمى فتيش ؟.. جماجم ؟.. هذا ساحر أسود ومن لا يرى هذا أعمى أو أحمق .. »

أضاف فى افتتان :

ـ « إنه فنان .. هذا كل شىء .. »

ـ « وأنت غبى .. هذا كل شىء .. »

بهذه الكلمات الرقيقة انتهت الأمسية .. وعدت لشقتى ..

* * *

عدد من رجال كفر بدر جاءوا يزورونني فى المستشفى .. ومعهم أختى ..

التلفيعات والشوارب وعلب السجائر المربعة البيضاء .. ونظرة الخطورة والجدية ..

من جديد ذلك الجو المتوتر المفتعل والضحكات التى تدرك على الفور أنها ليست من القلب. فقط مال زوج أختى على يسألنى إن كنت بحاجة إلى مال. بالطبع يدركون جيدًا أننى زاهد. لا أملك سوى راتب الجامعة ولا أملك عيادة ، وبالطبع لم أعتن لحظة بأن أملك أرضًا ..

من يعرفوننى جيدًا يدركون أننى لست ثريًا ..

لكن من يهتم ؟

عندما لا تكون لديك أسرة ، وعندما لا تنجب ، فأى مبلغ يكفيك .. بل يفيض .. لهذا اعتدت أن أعتبر نفسى ثريًا .. كلما أردت وجدت .. هل هناك وضع أفضل من هذا ؟. بينما الناس من خوف الفقر فى فقر ..

قلت له شاكرًا إن كل شيء على ما يرام ..

نفقات العلاج ليست باهظة .. عندما تضيق سبل العلاج فهو لا يكلف تقريبًا . من يكلف علاجهم الكثير هم الذين ما زال لديهم أمل ما ..

الدموع في عين أختى ، لكنها تتماسك ..

كفر بدر .. المنصورة .. أقرب مكانين لقلبى حيث الجذور ..

لكننى صرت غريبًا بالنسبة لكفر بدر دائمًا. قضيت وقتًا طويلاً في المدينة بحيث لم أعد أفهم مشاكل الفلاحين والجمعية الزراعية وسماد الأرض وبنك التسليف وأوبئة الماشية ، وصرت بالنسبة لأقاربى أغرب وأغرب .. دعك من أنهم عاجزون فعلاً عن فهم الرجل الذى لم يتزوج .. لا بد أنه منحل أو مجنون ..

عندما رحلوا جلست على الفراش بعض الوقت ، ثم تحاملت على نفسى إلى الحمام ..

سوف تأتى ماجى بعد قليل .. يجب أن أحلق ذقنى الشائبة هذه. تجعلنى أبدو مرهقًا شائخًا جدًا ..

بينما كنت أحلق ذقنى أمام المرآة كنت أتساءل عن سبب اختفاء عزت ..

* * *

فى تلك المرة اختفى عزت مدة أسبوعين بعد زيارة ذلك النحات السكندرى ..

كم من مرة قرعت الجرس أو انتظرته فلم يظهر ..

كنت أعرف أنه يمضى الخميس كل أسبوع فى الإسكندرية ، وأعرف أنه بالتأكيد يزور هذا الكراكوس لكن أين هو ؟.. لماذا لا يظهر يوم السبت ؟

مر الوقت وبدأت أشعر بقلق حقيقى ..

لم يعد مفر من فتح الشقة والبحث عن شيء .. ربما ترك عزت رسالة لي. أنت تعرف أن كل واحد منا قد ترك نسخة من مفتاح شقته لدى الآخر .. احتاج عزت لهذا المفتاح ذات مرة لينقذ حياتى عندما راحت سنى تصغر ...

هذا هو الوقت كى أدخل أنا ..

فى حذر فتحت باب الشقة ودخلت .. أضأت النور الكهربي. رائحة خانقة فعلاً لأنه لم تتم تهوية الشقة منذ فترة. لا أعتقد أننى سأجد جثة عزت شاخصة البصر ملقاة هنا أو هناك .. لا أشم رائحة تعفن ، ثم إن عزت ليس من الطراز الذى يموت بسهولة وصمت .. سوف يملأ الدنيا صراخًا ..

لا يوجد أحد .. لا يوجد أثر ..

وقفت ثابتًا أنظر للكف الحجرية التى جاء بها من عند كراكوس هذا ..

دنوت منها أكثر وتأملتها .. ثم شعرت بشعر رأسى ينتصب .. أعنى ما تبقى منه ..

* * *

فتح كراكوس الباب ليجدنى أمامه. لم يبد مرحبًا وبدت نظرة شيطانية غير مريحة على وجهه ..

ـ « مرحبًا يا دكتور .. يؤسفنى أنك قطعت كل هذه المسافة فأنا مشغول ولا أقدر على استقبالك .. »

قلت فى براءة :

ـ « اسمح لى على الأقل بالتقاط الأنفاس .. لا تتوقع أن أعود للقاهرة حالاً .. »

أفسح لى الباب فى ضجر ، وسألنى :

ـ « أين صديقك ؟.. »

ـ « كنت أنوى أن أوجه ذات السؤال .. »

فارع القامة قوى البدن فعلاً .. يمشى راسخًا أمامى وهو يكذب .. أعرف أنه يكذب .. نساء كثيرات فى عينيه خلف القرنية ..

قال بصوت هادئ :

ـ « لم أره منذ زمن .. حسبت هديتى لم ترق له . .. »

قلت وأنا أمشى بين التماثيل المتقنة التى تأثرت هنا وهناك :

ـ « هل تعرف أسطورة ميدوسا ؟.. المرأة التى لعنها زيوس فتحول شعرها إلى ثعابين ، وصارت لها نظرة تحول من تنظر له إلى حجر ؟.. »

قال ضاحكًا :

— « من لا يعرف هذه الأسطورة ؟.. تمنيت لو عندى هذه الموهبة إذن لما بذلت أى جهد فى صنع التماثيل .. كنت سأنزل إلى الشارع فأنظر للناس وأجمع ما يتحولون له .. »

— « من أنت حقًا ؟.. »

توقف واستدار نحوى .. نظرة نارية التمعت فى عينه . ليست نظرة من أهين بل نظرة من افتضح أمره .. قال لى فى ثبات :

— « اسمى كراكوس .. »

وجدت مطرقة عملاقة مستندة إلى جدار فأمسكت بها .. وقلت وأنا أتحسس ثقلها على يدى :

— « اليوم وقع شىء جعلنى أهشم هديتك لعزت .. جلبت مطرقة عملاقة وهشمتها . السبب هو أننى ارتبت فى الدقة التشريحية غير العادية . أنت تعرف أنه اتهموا النحات الفرنسى أوجست رودان بأنه يستعمل موديلات حية يغطيها بالنحاس الذائب . ما فعلته أنا هو أن هشمت الكف ، فوجدت ما تعرفه أنت .. هذه كف بشرية مقطوعة تغطت بطبقة حجرية .... »

ثم أضفت وأنا أرفع المطرقة :

— « ليس الأمر قاصرًا على نحات نصاب يستعمل بقايا جثث . هذا سهل .. لكنى أعتقد أن هناك نوعًا من اقتناص الأرواح .. نوعًا من السحر الأسود. تلك التماثيل الكاريكاتورية توحى بوجوه شياطين .. أليس كذلك ؟.. أنت تنحت وجوه شياطين .. لم ألق نحاتين كثيرين يستعينون بتماثيل فتيش وجماجم فيها شموع .. »

وقبل أن يفهم ما فعلته هويت بالمطرقة على تمثال مستحمة عارية تدارى عورتها بأوراق اللوتس .. تهشم الحجر .. واستطعت أن أرى لحمًا بشريًا . لحمًا اسودَ وتحلل منذ زمن ... كأنه جسم مومياء ..

نظرات نارية سلطها على وبدأ يبتسم فى وحشية ، فقلت :

— « كل هذا المعرض يعتمد على جثث خطفتها أنت وكسوتها .. ربما لم تخطفها ولكن قتلتها .. لا أعرف كيف نجد عزت هنا ، لكنى أعرف يقينًا أنه تمثال يقف فى هذا الأتيليه .. »

مشى كراكوس فى ثبات نحو المشجب الذى علق عليه الدمى .. قال وهو يتناول شيئًا من جيبه :

ـ « هذا غباء يا صاحبى .. لا أحد يزور الآخر فى بيته ليقول له هذا الهراء . .. »

كان يغرس الإبرة فى دمية قماشية معلقة على المشجب .. هل تشبهنى هذه الدمية فعلاً ؟.. لا أريد أن أبقى هـذه الفكرة فى رأسى .. مستحيل .. ليس لديه شىء من جسدى .. لا أظفارى ولا شعرى .. فماذا بوسعه أن يفعل ؟

كان يغـرس الإبرة .. بالضـبط فى الموضع الذى كانت فيه حنجرة الدمية .. ضحك ..

قال وقد فهم ما يدور برأسى :

ـ « أحيانًا يكفى منديل ورقى استعملته الضحية .. واضح أنك لا تعرف الكثير .. لقد تركت مناديل ورقية كثيرة فى زيارتك الأولى .. والآن .... »

هنا دق الباب عدة مرات وبغلظة ، فقلت له بلهجة انتصار :

ـ « أصدقائى من رجال الشرطة قد جاءوا .. سوف يرحبون جدًا بتفتيش هذه الشقة. لو لم أتفق معهم فلربما قررت أن تضمنى إلى مجموعتك .. »

ثم أسرعت نحو الباب وفتحته .. دخل ضابطان ومعهما عدد من رجال الشرطة ...

انتشروا فى الشقة .. وهنا أدركت الحقيقة المروعة .. كراكوس ليس هنا . لا أعرف كيف اختفى لكنه فعل ذلك ..

عندما رأوا التمثال المهشم عرفوا أننى لم أكن أهذى . كانوا قد رأوا تمثال الكف قبل هذا طبعًا ، وتأكد صديقى العتيد رجل الأمن عادل من أننى لن أكون وحدى ...

أما عزت فلا أثر له فى الشقة ....

عندما عدت للقاهرة أخيرًا وجدت أن أنوار شقة عزت مضاءة .. دققت الباب مرارًا ففتح لى مذعورًا .. كان قد بدأ بدوره يتساءل عن سبب اختفائى ...

سألته أين كان .. يا له من أحمق ..

قال إنه .. إحم .. إنه كان يزور قصة حب قديمة . لقد أمضى أسبوعين فى الزقازيق .. لا أعرف خلفيات هذه القصة على كل حال ، لكنى ظلمت كراكوس برغم كل شىء . إنه سفاح لكنه لم يمس صديقى ...

* * *

من أين جاء كراكوس ؟

من هو ؟

لا أحد يعرف .. لكنه قتل كثيرين أو نبش قبورهم ليستعمل جثثهم كقوالب لتماثيله. فى التسعينيات من القرن العشرين سمعنا عن مثّال مصرى استعمل أجزاء من جثث حقيقية فى تماثيله ، ثم فاحت الرائحة وافتضح .. طبعًا لم أندهش .. كل الحياة حدثت من قبل لكنهم ينسون ..

اليوم وجدته فى المستشفى . أتكلم عن كراكوس وليس المثّال المصرى طبعًا . يقف فى الظلال جوار فراشى بالضبط وفى يده تلك الدمية التى تمثلنى . المناديل الورقية قد تؤدى الغرض كما قال ..

كان يحمل دبوسًا .. نظر لى فى توحش وهو يمسك به فى نوع من الغل. ثم قربه من الحنجرة ..

هذا ما فعله معى منذ أعوام. لاحظ أن الحنجرة هى قاتلتى .. فهل هى مصادفة ؟ يبدو أن سحر الوغد يتأخر أعوامًا عدة ..

قلت له بصوت مبحوح :

ــ « كراكوس . انتهت القصة .. لا تغرس هذا الدبوس .. »

لكنه فعــل .. هــذه المرة كان الألم جهنميًا وارتميت على الفراش أعوى ... إنه يغرس الدبوس من جديد .. الحقد فى صورة إنسان ..

فقط لمست يدى الجرس فظهرت الممرضة أخيرًا .

قلت لها :

ــ « كراكوس .. »

لكنهــا مــلأت محقنًا بالبثيدين وأفرغته فى قناتى الوريدية . وبعــد ثانية لم أعــد فى عالمنــا هــذا .. لقــد ذاب كراكوس ....

(ت)

ترنيمة المزيرة

ـ 1 ـ

أنا الآن جالس فى الاستراحة بالمستشفى . هى خاصة بالأطباء ، لكنهم يسمحون لى بالجلوس .. فأنا منهم لو كنت قد نسيت ..

كنت منهمكا فى تدوين ذكرياتى عن (أسطورة الجاثوم) عندما رفعت رأسى لشاشة التلفزيون ، فوجدت مشهدًا من فيلم عربى .. هناك صياد فى قارب والقارب فى نهر ...

بدأ سطح مياه ذكرياتى يترقرق .. وتذكرت قصة أخرى ..

* * *

قريتى .. قريتى ..

برغم أننى رأيت أغلب بلاد العالم ، فما زال ذلك الحنين يحركنى كلما عدت لها ، لأتذكر طفولتى ورائحة الأرض ورائحة الليل .. حتى رائحة روث البهائم الجاف تثير شجنى .. وحتى صوت الغربان .. كل شىء هنا هو جزء من خلاياى . لو فحصتها تحت المجهر لرأيت ـ هناك ـ فى نواة الخلية كتّابًا صغيرًا ودار ضيافة وحقول ذرة وحظيرة ماشية ..

كما قلت لك : أشعر بأننى غريب عنهم .. مشاكلهم بعيدة عنى .. أحلامهم ليست أحلامى ، وبرغم هـذا أنا منتم بقـوة .. ربما للأرض .. ربما للطين .. ربما لميـاه الترعـة الرمادية .. أنا ليمونة زرعت هنا ثم اقتلعها أحدهم واحتفظ بها فى ثلاجة باردة بالقاهرة ..

سوف أدفن هنا .. لن أدفن فى القاهرة . بل إننى دفنت هنا من قبل فعلاً !.. هل تذكر ؟

لم أكن مسنًا وقتها . كنت فى ميعة الصبا كما يقولون .. مفعمًا بالصحة والعافية . آكل كالثيران وأدخن كمقلب قمامة وأضحك كالمجانين ..

كانت هذه أيام بعثتى الشهيرة فى بريطانيا .. البعثة التى غيرت حياتى كلها ــ كما تعرف ــ وكنت فى إجازة عدت فيها إلى الوطن بعض الوقت ..

عندما أعود للوطن ، أقصد قريتى على الفور .

عندما جـاء المسـاء التقيت مع صديقى الصبا (جمال) و(محمد) .. أحدهما مهندس والآخر محام .. لقد كانت مراهقة

طويلة حافلة ، وإن كنت أمضى أغلب وقتى فى المنصورة لكن لقاءاتنا كانت صاخبة دائمًا . عشاء دسم .. مراهنات على التهام أكبر عدد من أعواد القصب أو ثمار اليوسفى .. لعب الكرة .. لم تكن لياقتى عالية قط ، وكانت أنفاسى تتقطع بعد خمس دقائق .. لكنى كنت أجلس على كومة من الدريس وأراقبهما ..

جمال قـوى البنية ، أسـمر .. محمد هزيل ، ذو روح دعابة عالية .. يعرفان معظم أسرارى وأعرف معظم أسرارهما ..

قال لى جمال إنه يدعونى للعزبة ..

كان الظلام دامسًا فشعرت بقشعريرة تسرى عبر عمودى الفقرى . مشينا وسط الزراعات المظلمة لا نسمع سوى صوت كلب ينبح من بعيد .. أقدامنا تنغرس فى الطين .. طيور الليل الغامضة تصدر صوتها المميز ..

هنا تهبط منحدرًا صعبًا .. خذ الحذر لأن الترعة ــ البحر كما يصفونه ــ هى نهاية هذا المنحدر ، وأنت لا ترى أى شىء فعلاً .. كأنك تنحدر إلى عالم أسود مطلق ..

تمسك بيد جمال محاولاً ألا تتعثر ، بينما محمد يضيء الكشاف الخافت في يده .. إنهما يتصرفان بسلاسة لأنهما ابنا القرية ويحفظان موطئ القدمين ..

أخيرًا تجد القارب المتأرجح الذي ينتظرك . تضع جسدك فيه بحذر .. أي حماقة هذه التي تقوم بها ؟! أي غباء ؟! لو أنك سقطت في الماء هنا فلا دية لك ولن يجدك أحد .. بالطبع إلى أن يجدوا جثتك الطافية المنتفخة ..

كما قلت لك .. أعتقد أن كل عمل أخرق في التاريخ كان سببه الخوف من الاتهام بالجبن .

القارب يتأرجح بينما يتبادل الشابان المزاح ، وينزلق القارب في خفة فوق الماء كأنه قطرة زيت .. بينما جمال يمسك بالمجدافين ..

طش .. طش ..

كأننا نسبح في بركة من حبر أسود ..

أنظر للسماء فأراها مدهونة بنفس الحبر .. لكنها مليئة بالثقوب .. ثقوب يعتقد الناس أنها نجوم . تذكرت نكتة

(شيرلوك هولمز) عندما نام في الخيمة مع واطسن ونظر للسماء .. سأل (واطسن) : « ما الذي تقوله لك هذه النجوم ؟ » . ذكر واطسن استنتاجات كثيرة ، فقال هولمز : « معنى هذا أن هناك من سرق الخيمة من فوقنا !! »

القارب ينسل وسط الترعة .. واضح أن صفحة الماء ممتدة إلى أقصى الجانبين ، والأشجار المظلة مدثرة في الظلام كأنها أشباح تراقبنا .. وورد النيل ينزاح لنعبر من خلاله ..

جمال يلهث ... يلهث ....

الوقت يمضي ... يمضي ببطء ..

نظرت إلى بعيد .. الظلام دامس حقًا .. لكن ما هذا الشيء الذي يقف في وسط الترعة على بعد عشرين مترًا ؟

— 2 —

كلما دققت النظر أكثر ، بدا لى الأمر مريبًا .. كأننى أرى النصف العلوى لامرأة تقف منتصبة وسط الماء .. الظلام دامس والأضواء الواهنة خادعة جدًا ، لكنى أعتقد أن هذا هو المشهد فعلاً ..

ثم أدركت أننى أسمع غناء خافتًا ...

نظرت فى الظلام إلى جمال وهمست :

— « هل ترى هذا الشىء ؟ شجيرة فى وسط الترعة ؟! »

صمت قليلاً .. ثم قال بلهجة ذات معنى :

— « تجاهلها .. لن يحدث شىء . .. »

ونظرت لمحمد فوجدت شفتيه تهتزان .. كان يقرأ بعض قصار السور القرآنية ..

ماذا يحدث ؟.. هذا الغموض مخيف ...

بدأنا نقترب من الضفة الأخرى ، فوثب محمد إلى الأرض المظلمة ومد يده يساعدنى على الصعود .. جهد فظيع كى أتسلق ..

أخيرًا مشينا وسط المزروعات السوداء ، إلى حيث كانت نار مشتعلة فى (قوالح) الذرة .. وهناك جلس (عبد المعطى) الفلاح الذى يستأجر أرضًا فى العزبة ، وكان قد أعد لنا النار وبدأ فى شىّ بعض الذرة مع الشاى بالنعناع .. باختصار كل ما يجعل الحياة رائعة .. بينما جلس جوارنا يراقبنا فى رضا ويدخن الجوزة ..

بعد رشفات من الشاى بدأت أشعر بانتعاش ، وبأننى لست خائفًا لهذا الحد من رحلة العودة ..

سألت محمدًا عن هذا الذى رأيناه فى رحلتنا إلى هنا ، فالتفت إلى (عبد المعطى) وطلب منه أن يحكى . كانت الوجوه تتوهج فى اللهب فتشعرك بالرعب .

نفث عبد المعطى سحابة كثيفة من المعسل ، ثم قال بصوت مبحوح :

— « لابد أنكم رأيتم المزييرة .. اللهم احفظنا » .

حاولت أن أنطق الاسم بصعوبة :

ـ « مزييرة ؟! »

ـ « نعم .. مزييرة .. هى الجنية التى تسكن هذه الترعة .. إنها تسبح فى الليل باحثة عن أى شاب يصطاد أو يمر بقربها ، تناديه وتغنى له .. لو لحق بها فلسوف تجذبه تحت الماء ليغرق وفى الصباح يجدون جثته . أما لو نجح فى أن يقتلها .... »

قال جمال ضاحكًا :

ـ « لو نجحت فى قتلها فلسوف تجد معها طاقية الإخفاء ، هكذا تقول الأسطورة . بما أن أحدًا لم يجد طاقية الإخفاء بعد فبإن بوسعك فهم أن أحدًا لم يقتلها ! »

بدت لى القصة شبيهة جدًا بقصة النداهة ... النداهة تنادى تحت البيوت ليلحق الشباب بها ، أو تتقمص شكل أحد رفاقك وتقنعك بالخروج معها ليلاً ... تكتشف بعد قليل أن هذا ليس رفيقك !!

لكنها بالفعل فكرة تثير القشعريرة ، دعك من أن ما رأيته كان فعلاً أقرب لأنثى .. لكنهـا أنثى ضخمة لابد أن قامتها تقـارب أربعة أمتار ..

* * *

كل الثقافات البشرية فيها نمط عروس البحر التى تنادى الناس ليـلاً .. أنت تعرف عرائس بحـر (أوليس) وكيف كن ينادين البحارة ، حتى اضطر أوليس ورفاقه لأن يربطوا أنفسهم إلى الصوارى حتى لا يلحقوا بالنداء ويلقوا حتفهم .. قصص ألف ليلة وليلة تعج بعرائس البحر ـ كما تعلم ..

يبدو أن عرائس البحر كن موجودات فى كل مكان فى القصص الإغريقية . هن منتشرات كقطط الشوارع عندنا ، وكن فى رتبة أقل نوعًا من الآلهة .. أو هن نتيجة زواج إله مع أنثى بشرية .. كن يغنين أغانى حزينة بعد ما خطف بلوتو برسفونه إلى مملكته .. وكانت أغانيهن لا تقاوم .. تدفعك لأن تسقط فى الشرك وأنت سعيد .. هذا فن أنثوى جدًا ..

أحيانًا ينام البحارة فتتسلق العرائس إلى السفينة وتلتهمهم ..

سوف تجد الكثير من قصص عرائس البحر فى كتب المؤرخين العرب . سوف تجد قصصًا حكاها القزوينى والمسعودى وأغلبها يتعلق بزواج بشر من عرائس بحر .

فى ألمانيا تجد أسطورة لورالاى وهى أسطورة قوية وراسخة جدًا .. (لورالاى) لا تغنى لكنها تفرد شعرها كالشباك لتسقط فيها السفن ..

هل تذكر (الحطمة) ، القصة التى سمعتها فى قصص وراء الباب المغلق ؟ .. أعتقد أنها قريبة جدًّا من المزيبرة ..

كعادة العلماء فى هدم كل ما هو ساحر ، يقولون إن القصة كلها تتعلق بالفقمة .. هذه تظهر فى الظلام والأمواج لبحارة أنهكهم الصراع وأنهكهم الحرمان من الأنثى مع طول الرحلة ، لذا يعتقدون أنهم يرون فتاة بارعة الحسن نصفها العلوى امرأة والنصف السفلى سمكة ..

كلها قصص تتراوح بين المسلية والمخيفة .. لكن لا تنكر أن جو (المزيبرة) مفزع فعلاً ..

* * *

المزيد من أكواب الشاى الصغيرة بالنعناع .. الكثير من أكواز الذرة ..

إنها الواحدة بعد منتصف الليل .. خليط لذيذ من النعاس والقشعريرة .. الشعور ببرد خفيف .. رائحة المعسل من ناحية (عبد المعطى) ..

فى النهاية قلت ـ وأنا أحاول بعث الروح فى قدمى التى صارت عش نمل :

ـ « أعتقد أن وقت العودة قد حان » .

هكذا عدنا نقطع المساحة المظلمة ، لا تعرف حقًّا ما تدوس عليه ولا أين أنت .

المنحدر الرهيب المتجه للماء .. هذا الكشاف اللعين الخافت لا ينير أى شىء .

أخيرًا ينتظرنا القارب وهو يتأرجح بلا توقف .. أمسك جمال بالمجداف ويبدأ يضرب الماء الأسود .. لا أرى شيئًا تقريبًا ؛ ولهذا أنظر للنجوم فى السماء ..

— 3 —

ساد الصمت .. بينما القارب يشق الماء المكسو بورد النيل .. لهاث جمال وأنفاس محمد الثقيلة . أحب هؤلاء المهندسين العضليين الذين يقدرون على العودة بك لشط النجاة ..

صوت الماء .. صوت المجدافين .. صوت الأنفاس ..

لا أعرف ما حدث ولا كيف ..

هناك شيء جعل القارب يرتج بقوة ، ثم يدور حول نفسه ليمارس مع جسدى أعنف قوانين الطرد المركزى التى هى فى الحقيقة قصور ذاتى . وكان وضعى حرجًا فعلاً على الحافة بالضبط .. فعلت ما يفعله أى شخص لا يجيد التحكم فى جسده ..

وجدت أننى أنحدر ..

وفى لحظة وجدت نفسى وسط المياه المظلمة .. لا أراها لكن أشعر ببردها وثقلها .. عقلى يخبرنى بشيء واحد فقط :

— « أنت سقطت ! »

أهوى لأسفل وسط ما شعرت كأنه أعشاب مائية أو جذور عامة ثم ضربت قدمى الطمى فى القاع ... ركلت القاع فارتفعت من جديد نحو السطح .. هذا هو سيناريو الغرق المعتاد إلى أن تمتلئ رئتى بالماء . أنا لا أسبح بل أطفو كجثة غارقة ، لكن هذه المياه لا تسمح بالطفو .. تختلف تمامًا عن مياه البحر ..

قلت لنفسى إنها النهاية وأنا أهوى للقاع ثانية ..

ثم ارتفعت .. ظلام .. لا أثر للقارب ..

فتحت فمى لأصرخ .. لكن الماء الآسن ملأ فمى ..

ما لم أعرفه وقتها هو أنهم لم يلحظوا سقوطى للمرة الأولى .. كانت هنـــاك دوامة ، لهـذا انهمك جمـــال فى السيطرة على المجداف .. بينما حاول محمد التماسك .. لم يلحظ أحدهما صوت (طششششش) العالى وكان الظلام الدامس يمنع رؤية أى شيء ..

كنت أموت ..

أعتقد أن نقص الأكسجين بدأ يعبث بدماغى .. بدأت أغيب عن الوعى ودعوت الله أن تكون النهاية سريعة ..

هنا شعرت بتلك اليد الصلبة تمسك بقميصى

قوة غير عادية تجرنى ..

وهنا فقدت الوعى .. ظلام ..

* * *

كنت ملقى هناك على أرض صلبة .. مبتلاً ككلب صغير فى يوم مطر ..

أسعل فينبعث الماء من كل فتحات وجهى ، فلولا معلوماتى التشريحية لقلت إنه يخرج من عينى ..

الظلام من حولى .. ضوء النجوم الشبيه بثقوب فى جدار الكون ..

نهضت بصعوبة وتقيأت الكثير من ماء الترعة بمذاق الطمى ..

ثم جلست .. أين أنا ؟! هذا لسان من الأرض يبرز وسط الترعة .. لا شك فى هذا ..

عيناى تعتادان الظلام نوعًا .. هنا أرى أمامى فى الظلام هذا الشكل ..

امرأة عملاقة يبرز نصفها العلوى فقط من الماء .. أدرك بسهولة أن عينيها مشعتان .. لون أخضر فوسفورى مخيف ، وأرى شعرها المنتفش الذى يوحى بأنها أنثى .. لكننى لا أرى ملامحها ..

أردت أن أتكلم لكن الكلام احتبس فى حلقى ...

وأدركت فى هلع أنها تغنى .. لا شك فى هذا .. ترنيمة مبهمة خافتة لا تتبين أى حرف منها لكنها مسموعة ..

المزييرة !

هل هى من جذبنى للماء ؟.. هل هذه هى النهاية ؟ لماذا لم تتركنى للموت إذن ؟.. هل تتصرف مثل التمساح الذى يجذب ضحاياه ليدفنها فى الطين حتى تتعفن ويقدر على مضغها ؟

أدركت أن هذا الشىء المرعب يحمل شيئًا فى يده ..

طوحه فسقط جوارى ..

عندما دققت النظر رأيتها تستدير .. تبتعد .. ومع ابتعادها إلى قلب الماء كانت تغطس أكثر فأكثر حتى توارت نهائيًا ..

وسمعت من بعيد صوت محمد يهتف :

ــ « رفعاااااااااات !.. »

صرخت بما بقى فى حلقى من صوت :

ــ « محمااااااااااد !.. جماااااااااال ! »

مزيد من الصراخ ثم سمعت صوت الضربات .. المجداف ... ضوء خافت يتوهج فى مقدمة القارب .. لقد عثرا على ..

وسرعان ما رأيت جمال واقفًا يمسك بالمجداف بينما محمد يصوب الكشاف نحوى ، وهتف جمال :

ــ « تبًا لك !... حسبنا أننا لن نجدك ثانية .. »

ــ « من جاء بك لهذه الجزيرة ؟! لم نمر من هنا .. هل تجيد السباحة لهذا الحد ؟! »

لم أرد إلى أن وجدت نفسى فى القارب المتأرجح .. كنت أرتجف بالكامل ..

كانت الأسئلة تنهال على ، فقلت فى شرود :

ــ « المزبيرة أنقذتنى ! »

ــ « هل تمزح ؟! »

ــ « لا أعرف تفسيرًا آخر لما مررت به » .

ومددت يدى أتفحص الشىء الذى ألقته جوارى .. كان شيئًا صوفيًا مبللاً .. وصوبوا عليه الكشاف ليروه بشكل أفضل ..

هتف محمد فى عدم تصديق :

ــ « هذه طاقية الإخفاء ! لقد تركتها لك .. »

فى غيظ قال (جمال) :

ــ « حتى بمنطق الخرافة نفسه ، فهذا مستحيل .. هو لم يقتلها » .

الشىء كان تلفيعة طويلة مما يلبسه الفلاحون ، وقد عقدت على شكل أنشوطة ... لم يكن طاقية الإخفاء ، للأسف ..

* * *

كانت هذه الساعات الأولى من الصباح لكننا لم نعد لبيوتنا ..

كنت هناك فى بيت (جمال) جتوار النار التى أشعلها لأصطلى بها . أشعل لفافة تبغ وجلس جوارى .. ثم قال وهو يتأمل التلفيعة بين يديه :

ـ « هناك أسطورة أخرى حكاها لى عبد المعطى منذ زمن .. هناك فلاح قتل زوجته خنقًا ثم تخلص من جثتها فى هذه الترعة .. حدث هذا منذ عقود عديدة . قال البعض إنهم يرونها من حين لآخر تسرى فوق الماء. طبعًا لا أحتاج لقول إنه خنقها بالتلفيعة .. والآن هل يقودنا هذا لتفسير ؟ »

قال محمد مفكرًا :

ـ « لا أؤمن بالأشباح .. هل تعرف ما أفكر فيه ؟.. لربما كان هناك نوع من الكائنات الغامضة يعيش تحت هذه الترعة .. ربما يجد لنفسه موطنًا فى الأوحال ، ويبقى هناك فى وقت الجفاف . لربما كان هذا هو الكائن الذى قابلناه مرتين هذه الليلة .. ولربما وجد هذه التلفيعة بالصدفة .. »

قلت أنا وأنا أجرع الشاى الثقيل الساخن الذى أعده (جمال) لى :

ـ « النظريتان جديرتان بالتأمل .. لكـن هنـاك نظرية لم تذكراها وأميل لها .. »

ـ « ما هى ؟.. »

شفطت شفطة من الشاى وقلت :

ـ « إن (المزيبرة) هى ما قابلناه فعلاً .. لكنها ليست كائنًا قاتلاً كما يحلو للأساطير أن تتصور » .

وساد صمت ثقيل ..

بدأ ضوء الفجر يتسلل للغرفة ، عندها قررت ومحمد العودة لدارينا ...

(ا)

أسـرتنا

ــ 1 ــ

يؤمل دنيا لتبقى له ..

فوافى المنية قبل الأمل

حثيثًا يروى أصول الفسيل ..

فعاش الفسيل ومات الرجل

(سيبويه)

* * *

أين الكاهن الأخير ؟ أين (هن تشو كان) ؟

أفتقده كثيرًا فى هـذه اللحظات .. لقـد كان خيـر صديق لى منذ قابلته مذعـورًا كقـط فى ذلك المخـزن فى قريتى لا يعرف أى شىء . ثم عرفت أنه يعرف الكثير جدًا ...

أتمنى لو رأيته وأدعو له بالخير ...

فى فيلم (أشياء للحياة) بطولة (ميشيل بيكولى) ، مات البطل فى حادث سيارة .. أظهره المخرج يسبح فى المحيط .. يرى سفينة تقتـرب منه . على السفينة يرى وجوه أمه وزوجته وحبيبته وصديقه .. كلهم يضحكون ويلوحون له فيلوح لهم فى

مرح .. يدنو منهم أكثر ، لكن السفينة لا تتوقف ولا تلتقطه .. تبتعد وهم ما زالوا يلوحون له . هنا يدرك الحقيقة المرعبة : حياتهم مستمرة من دونه . يتبدل وجهه إلى الذعر والحزن .. ثم تخور قواه فينزلق لأسفل ببطء ...

اليوم .. هناك سفينة عليها (ماجى) و(عزت) و(كاميليا) و(هن تشو) كان وكل أسرتى فى كفر بدر .. هذه السفينة تبتعد وهم يلوحون لى .. لكنهم لن يلتقطونى ..

وفى القاع تنتظرنى أسرة أخرى صغيرة لطيفة من (لوسيفر) و(ليليث) و(بهموت) و(أبراكساس) و .. و .... ..

تناولت المصحف الصغير جوار الفراش ورحت أقرأ ...

بعد ساعة بدأ جفناى يثقلان ..

لا أدرى متى دخلت (ماجى) الغرفة .. تمضى معظم وقتها هنا وهذه إشارة واضحة : أنت ستموت .. لن أتركك حتى تقضى نحبك .. لو كانت مطمئنة لعادت لأسكتلندا ..

تنسق الأزهار التى جلبتها بجوار فراشى ، برغم أننى أخبرتها مرارًا أننى أمقت الأزهار ..

تجلس جوار الفراش وتبتسم .. ثم تبدأ فى الغناء بصوت رقيق خافت ..

صوتها يحملنى لأعلى .. لأعلى ..

هناك مكان ما . فى زمن ما .. ليس فيه ألم ولا حنين ..

كنت أحلم ثم بدأت الرؤيا تتعكر بفعل كابوس ..

كنت أرى د. رتشارد كامنجز ...

* * *

أيها الموت .. إن خادمك على الباب .

لقد قطع بحار الغيب وجلب نداءك إلى بيتى .

إن الليلة مظلمة وقلبى يرتجف من الخوف ..

غير أننى سوف آخذ المصباح ، أفتح بوابتى وأنحنى له مُرحبًا .

إنه رسولك هذا الذى يقف عند بابى . سوف يعود إليك منجزًا المهمة ، تاركًا وراءه ظلامًا دامسًا ..

وفى بيتى المنعزل سأكون أنا القربان الأخير الذى أهديه لك .

(طاغور)

* * *

أنتم تذكرون لا شك تلك التجربة المخيفة التى كان د. (كامنجز) ينوى تنفيذها ..

محاولة إعادة إحياء مومياء الكونت (دراكيولا) كما يزعم هو ، والتى جاء بها من ترانسلفانيا ..

كان يؤمن أن هناك من يكرر المحاولة كل مئة عام .. من ثم يظهر الكونت وتنتشر عقيدة مصاصى الدماء ، إلى أن يموت بيد شخص لم يتلوث ..

الحقيقة أننى كنت مستجدًا فى تلك الأوقات ، ولم أكن ذا خبرة تقريبًا ..

ثم جاء موعد التجربة فنمت . أيقظتنى ابنته (كاترين) لتخبرنى أن البيت خال .. أبوها وأمها وضيفهم د. (لوفارسكى) اليهودى ليسوا بالبيت . لقد صار على كاهلى أن أقوم بالطقوس المخيفة .

جربت وفشلت .. أو هذا ما بدا لى .. الفكرة هى أن (كاترين) راحت تضحك فى توحش ، ثم غمست إصبعها فى دلو الدم ولعقته .. بدا لى أنهـا تحولت لمصاص دماء فعـلاً ، فهـرعت أفر من المكان ، وكان أقرب النظريات لى هى أن روح

(مصاص الدماء) تقمصتها وقتلت باقى الأسرة .. ربما هى مزحة ثقيلة من (كامنجز) ... ربما قتلها أبوها عندما تحولت ! لا أدرى حقًا ..

فيما بعد ، اختفى د. (رتشارد كامنجز) من حياتى تمامًا .. لم يرد على خطاباتى ، وعرفت أنه هاجر إلى أستراليا مع أستراليا .. هذا ما قيل لى ، ولو كان صحيحًا فهو ما زال حيًا ..

ظلت أسئلة كثيرة تحوم حول هذا الموقف .. ماذا حدث بالضبط وما مصيره ؟

— 2 —

راح المغنى ينشد مستخرجًا ذلك الصوت الأجش الغريب من أعماق حنجرته .. لا بل من أعماق روحه . كنت أمقت (الروك آند رول) بشدة وأجده سخيفًا ، لكنى كنت مضطرًا للحضور لأن (هارى شيلدون) أصر على هذا ..

هل تذكر (هارى شيلدون) ؟ صديقى الأمريكى الوسيم قوى البنيـة والمندفع كالطوربيد لم تكن زوجتـه معنا لأن المـرء لا يصحب زوجته لتلك الأماكن ..

كنا فى (ميامى) ، وكان هناك صخب شديد وزحام من النوع الذى يجعلك عاجزًا عن التنفس ..! الكل يرقص .. الكل يتمايل .. الكل فى حالة جنونية تذكرك بحفلات (الزار) عندنا .. هذا علاج نفسى على أعلى مستوى كما هو واضح .. معظم الناس يستعملون الإسبانية ، وهذا شىء شائع فى (ميامى) ..

رائحة العرق .. رائحة التبغ ..

مطرب (الروك) يقف فاتحًا ذراعيه ثم يثب فوق الناس كأنه يثب من طائرة .. هذا هو أسلوب (الملاحة فى الزحام) المعروف .. تتلقفه الأيدى وتطوح به فى الهواء عدة مرات ثم تقذفه للمسرح ..

ثم رأيت مطربة (الروك) الحسناء ..

امرأة بارعة الحسن تلبس ثيابًا جلدية ضيقة ، وقد ملأت ذراعيها بالوشم وهى تمسك بالميكروفون وتصرخ بجنون .. الحق أنها أشعلت المكان وسط الدخان ووهج الليزر ..

قال لى (هارى) وسط الصخب :

— « كااااتين كفز .. بريييييبية .. أباب »

كانت أذنى تدق من تلقاء نفسها ، لذا دنوت منه أكثر لأسمع بشكل أفضل :

- « كاترين كامنجز .. بريطانية .. يعشقها الشباب »

هززت رأسى موافقًا ثم تابعت الحفل ..

ولكن .. لحظة .. (كاترين كامنجز) ؟.. هل يفسر هذا الشعور الذى داهمنى بأن وجهها مألـوف برغـم كـل الأصباغ التى وضعتها ؟.. الفتاة البريطانية المحتشمة الهـادئة تغيرت جدًا .. برغم هذا لا تختلف كثيرًا .. لن أنسى هـذا الوجه . كانت فى سن الثامنة عشرة وقتها .. أعتقـد أنها اليـوم على أعتاب الخامسة والثلاثين ..

ولكن .. هل هى حقًا ؟!

كيف صار هذا ؟! ومتى ؟!

حاولت أن أدنو أكثر وسط هذا الصخب .. أشق زحام الشباب المجنون الذى يدخن الماريجوانا . كانت هى على المسرح راكعة على ركبتيها وتغنى كأنها تصلى ، وهو وضع شهير لدى مطربى الروك ..

هنا رأيت عينيها الرماديتين الزرقاوين تنظران لى عبر هذه المسافة وتتسعان ..

لقد تذكرتنى ....

معنى هذا أنها هى فعلاً ..

كنت أتمنى أن أتكلم لكنها لن تسمعنى . ولا فرصة للاقتراب أكثر . قال لى (هارى) ـ وقد لاحظ توترى ـ إن بوسعى أن أقابلها فى غرفتها بعد العرض .. شىء كالذى يفعلونه فى الأفلام العربية فى الكباريهات ..

هكذا فى ساعة متأخرة من الليل ، انتهى الحفل وحطمتْ الجيتار الذى تحمله كالعادة ثم هرعت إلى الداخل . هرعت مع

(هارى) إلى خلفية المنصـــة .. هارى يجيد استعمال الرشوة فى الحصول على ما يريد .

على باب غرفتها قلت لهارى متوسلاً :

ـ « أريد الانفــراد بها .. لو كنــت ترغب فى العــودة حالاً فلتفعل ، وأنا سأعود بسيارة أجرة » .

نظر لى فى خبث .. لم يعتد أن يرى رجلاً متحمسًا لهذا الحد . لابد أنه قال لنفسه إن هناك هرمونات ما زالت حية لدى رفعت إسماعيل .. لو كان لدى الأمريكيين تعبير مثل (هع هع .. ماشى يا سيدى) لقاله ..

أشعل لفافة تبغ ودس يديه فى جيبى سترته ثم انصرف ...

قرعت الباب مرارًا فسمعت ذلك الصوت المبحوح يقول :

ـ « من ؟ »

من أنا ؟.. ماذا أقول ؟

ـ « أنا الدكتور إسماعيل .. رفعت إسماعيل .. أعتقد أننى كنت صديق أبيك منذ .. منذ سبع عشرة سنة تقريبًا »

* * *

نظرت لى كاترين فى رعب عندما فتحت الباب وهتفت :

ـــ « أنت من دون الناس ؟.. »

ـــ « وأنت من دون الناس ؟.. »

ثم أنها أفسحت لى فرجة الباب كى أدخل ..

كان هناك جو عام من الحرج . هذا متوقع .. آخر مرة التقينا فيها كان هناك تابوت يرقد فيه (كونت دراكيولا) ، وكانت تلعق الدم وتنبعث منها رائحة الكبريت .. لا أعتقد أن هناك زوجين مطلقين شعرا بهذا الحرج لدى لقائهما بعد أعوام ..

قلت لها وأنا أتأمل الغرفة :

ـــ « كاترين كامنجز .. دهر قد مضى على لقائنا وعلى تلك الأمسية .. التقينا بأغرب الصدف الممكنة .. »

(غرفة في الكواليس بلا مرآة واحدة ؟.. كيف تستعد للمسرح إذن ؟!)

كانت تضع طبقة سميكة من الماكياج جديرة بمطربة روك . لم يكن هذا زمن التثقيب Piercing لهذا اندهشت جدًّا لما رأيت

خرزة فى حاجبها وخرزة فى شفتها السفلى . بدا لى هذا شيطانيًا .. كما أنها كانت غارقة فى العرق بعد الحفل مما أذاب هذا كله ..

(تضع جالونًا كاملاً من العطر .. كل شىء معطر بلا تحفظ)

أشعلت لفافة تبغ ونفثت فى وجهى سحابة كثيفة وقالت :

ـــ « أعتقد أننى مدينة بتفسير لك » .

ـــ « فعلاً ... لقد كان فراقنا بطريقة عجيبة فعلاً .. كدت أموت رعبًا .. »

انفجرت تضحك ثم قالت :

ـــ « كانت دعابة عملية .. دعابة قاسية .. أبى ولوفارسكى قررا أن يداعباك ولم يتوقعا أنك بهذا الجبن .. »

ـــ « أعترف أنك كنت مفزعة فعلاً .. وماذا عن لعق الدم ؟.. »

حكت لى عن أستاذ الجامعة الأمريكى الذى علم تلاميذه شيئين : دقة الملاحظة ، وعدم الاشمئزاز من أى شىء فى العلم . ثم خلط

مزيجًا من الكيروسـين والزيت والعسـل وتذوقه بإصبعه ومرر أنبوب الاختبار على التلاميذ ليجرب كل واحد أن يلعق . اشمأز أكثرهم وبعضهم فعل . هنا قال لهم : لو كنتم قد تعلمتم الدرس جيدًا لكنتم أدق ملاحظة .. الإصبع الذى غمسته فى المزيج ليس هو الإصبع الذى لعقته !!

ـ « أنا كذلك لم ألعق الإصبع الذى غمسته فى الدم .. يسهل خداعك فى ظلام القبو وجو التوتر العام » .

ـ « ورائحة الكبريت ؟ »

ـ « هناك شموع وأعواد ثقاب .. إلخ .. »

نظرت لها مليًا ..

إنها تكذب .. حتمًا تكذب .. لكن ما الحقيقة ؟

ـ 3 ـ

لماذا لم أبتعد ؟.. لماذا لم أفر ؟

لنفس السبب الذى جعلنى أظل فى القبو تلك الليلة وأجرى التجربة وحدى .. لابد أن أعرف وإلا فتك بى الفضول ..

قالت لى وهى ترتدى سترة جلدية برغم أن الطقس دافئ كعادة هذه البلاد :

ـ « هل معك سيارة ؟ »

ـ « لا » .

ـ « هذا حسن .. سنركب سيارتى » .

لماذا لا توجد مرايا جانبية فى السيارة؟. هذا غريب فعلاً .

(تضع جالونًا كاملاً من العطر .. كل شىء معطر بلا تحفظ)

كان هناك باب خلفى يقود لزقاق خال .. وهناك كانت سيارة رياضية رشيقة ـ لا أعرف الموديل ـ تنتظر . هـذه طريقتها للفرار طبعًا لأنها لن تخرج من الباب الأمامى .

ألقت نفسها فى مقعد القيادة ثم طلبت منى أن أركب ..

انطلقت السيارة فى شوارع (ميامى) .. الظلام والأضواء ..

هذا هو شارع (أوشين در) وهو من أجمل شوارع المدينة حيث أروع مجموعة من الفنادق في (فلوريدا) كلها . برغم هذا الإبهار أمقت الولايات المتحدة فعلاً .. ربما بسبب هذا الإبهار . كبيرة جدًّا .. حديثة جدًّا .. سريعة جدًّا .. غالية جدًّا ..

سألتها وهى تنهب الطريق :

ــ « فتاة بريطانية خجول تعيش فى ضاحية بريطانية ، واليوم مطربة (روك) أمريكية يعشقها الشباب .. رحلة طويلة جدًّا !! »

قالت ــ وهى مستمرة فى القيادة :

ــ « أنت لا تعرف بالطاقات البركانية التى قد تكون لديك .. لقد رحلنا إلى أستراليا وحاولنا التأقلم فلم نستطع ، ثم قرر أبى أن يأتى للولايات .. اندمجت أنا مع بعض فرق (الروك) ثم اكتشفت أن هذا ما أريد عمله طيلة حياتى .. »

كنت أرمق الطريق .. وأختلس نظرات للمرآة التى تريك خلفية السيارة .. لا أقدر على توجيهها نحوها لكن بالفعل أتمنى أن أرى ما سينعكس فيها ..

عدت أسألها :

ــ « هل تزوجت ؟ »

ــ « لا .. وأنت ؟ »

ــ « بالطبع لا .. وماذا عن أبيك ؟ »

قالت ضاحكة :

ــ « سوف نزوره .. لا تقلق !! .. »

فيما بعد عرفت أنها تعبر منطقة الشط الجنوبى ، أو ما يطلق عليه الأمريكان كالعادة بـ (SoBe) . أقدم مناطق ميامى .. لكنها حديثة البناء حسنة التنسيق ، والسبب أنها دمرت تقريبًا بالكامل عام 1926 بسبب إعصار مريع ثم بنيت من جديد ..

أخيرًا اندفعت عبر شوارع جانبية ..

فى النهاية وجدت بيتًا صغيرًا ليس حديث الطراز جدًّا .. حديقة جميلة لكن من الواضح أن أحدًا لا يعنى بها .. هناك شجرة عتيقة عجوز ، وهناك مصباح واهن معلق جوار الباب وهناك ممر بين الأشجار يقود لهذا الباب .. باب قديم من خشب

البلوط من الطراز الذى يضعون جواره مقبضًا للدق على شكل قبضة يد . تعرف هذا الطراز طبعًا .

فتحت الباب ثم دعتنى للدخول .. وصاحت منادية :

ـ « داد .. هناك مفاجأة لك ! »

داد ؟ بهذه البساطة ؟.. الويل !

لم أتصور لحظة أن د. (رتشارد كامنجز) سيظهر فى حياتى من جديد بهذه السرعة والسهولة . لكنى عرفت أنها محقة .. كان هناك درج يقود لطابق علوى من البيت . ورأيت ذلك الكهل الوقور الذى يلبس روبًا قصيرًا حريريًا تحته ربطة عنق ، يهبط فى الدرج ..

لم يتقدم فى العمر عن آخر لقاء ، برغم أننى أبدو كمن شاخ خمسين عامًا ..

هتف غير مصدق :

ـ « رفعت !! أيها الشىء القديم ! أنت ما زلت حيًّا ؟! »

هذا الرجل يحمل لى ذكريات عديدة .. بالنسبة لى هو أول ضربة هوت على سد ذكريات ما وراء الطبيعة ، وبعدها صرت أنا أنا .. لا أعرف إن كنت أشكره على هذا ؟

هؤلاء القوم يعيشون فى بركة من العطور الفاغمة .. لا أعرف السبب ..

راح يثرثر ..

حكى لى عن طقوس مصاص الدماء التى كنا نرتب لها .. قال إنه أدرك أن الطقوس فاشلة فطلب من (كاترين) أن تداعبنى دعابة أخيرة وتتظاهر بأنها تحولت لمصاص دماء . قال إننى برهنت عن خنغ شديد وفررت كالفئران .. قال إنه لم يتوقع قط أننى بهذا الجبن . بعد هذا سافرت الأسرة كلها إلى (ملبورن) وقام بالتدريس عدة أعوام ..

ـ « سئمت أستراليا . بلد جميل آمن لدرجة الملل .. لم أتحمل أكثر وأخذت أسرتى وانتقلنا إلى الولايات .... »

كل هذا جميل .. لكن لم أستطع وضع كلماته فى موضعها . كان متحمسًا للتجربة ووضع كل رهان حياته عليها وأعد لها كل

شىء ، وفى اللحظة الأخيرة قرر أنها سخيفة وقرر أن يدبر لى مقلبًا . هذا يبدو لى غريبًا .. الحياة ــ وأنت توافقنى حتمًا ــ لا تسير هكذا .. الناس لا يتصرفون هكذا ..

تقضى حياتك محاولاً تحقيق فكرة ما ، وفى اللحظة الأخيرة تقرر أنها فكرة فاشلة فتتناسى الأمر وتقرر عمل دعابة فى شخص آخر ... مستحيل ..

دعيانى للعشاء فاعتذرت وإن وعدت بأن ألبى الدعوة غدًا ..

ــ 4 ــ

قضيت النهار كله مع (هارى) فى (إيفرجليدس) أو ما يطلقون عليه (نهر العشب) ، وهو حديقة وطنية وحديقة للحيوانات النادرة .

سمع قصتى كلها ، فكان رأيه أن أتناسى هذه الأسرة تمامًا ..

لكنى كنت مقيدًا بأصفاد قوية من الفضول .. لم يكن بوسعى الرفض .. كل تجاربى مع (كامنجز) تضعنى فى هذا الموقف ..

قلت له :

ــ « سوف أذهب للعشاء » .

ــ « هل آتى معك ؟ »

قلت فى تصميم :

ــ « لا أعتقد .. لم يدعك أحد .. هذه نقطة .. ولن يكونوا على راحتهم وهذه نقطة أخرى » .

حصل منى على العنوان بدقة ، وهذا لو لم أعد إلى داره فى موعد محترم ..

وعندما جاء المساء قصدت الدار التى حفظت مكانها .. يشبه الأمر ليلة مماثلة مررت بها منذ أعوام طويلة ، لكنها كانت فى إنجلترا وليس الولايات ..

رحبت بى كاترين .. كانت هذه المرة تلبس ثوبًا أنثويًا عاديًا بدلاً من الثياب الجلدية الشيطانية تلك .. أما أبوها فكان يلبس بدلة سوداء أنيقة ، وفوجئت أن زوجته ما زالت حية .. رحبت بى بحرارة ثم اقتادونى إلى المائدة ..

لاحظت هذه المرة أنه لا توجد أية أيقونات دينية .. كانت هذه الأسرة تضع صورًا للمسيح والعشاء الأخير وتعلق نصف دستة من الصلبان . ماذا حدث كى يكفوا عن ذلك ؟ هل فقدوا إيمانهم فجأة ؟!

لماذا لا توجد مرايا فى هذه الدار ؟

جلست إلى المائدة ، وجلست كاترين جوارى .. ذهبت السيدة للمطبخ ثم عادت حاملة عدة صحاف من الطعام تفوح منها رائحة طيبة ..

جلسوا جميعًا حولى وراحوا يغروننى بأن آكل بشهية ..

كل هـذا جميـل .. لكن لماذا لا تأكلون ، تقريبًا ؟.. يكتفون بجرعات بسيطة من النبيذ ولا يمسون الطعام ، بينما أنا طبعًا أكلت بشهية ولم أمس النبيذ .

رحت أتأمل الانعكاسات على الكئوس .. على أدوات الطعام الفضية ..

فى لحظة .. لم أعد أتحمل أكثر ..

ألقيت بالشوكة والسكين على المنضدة وقلت فى حسم :

ــ « د. ريتشارد .. أعتقد أنه لا داعى لمزيد من العبث .. صورتكم لا تنعكس فى أى شىء .. أنتم مصاصو دماء ! لقد تحولتم جميعًا فى تلك الليلة » .

ساد الصمت .. ثم ابتسم وتبادل نظرة مع زوجته ..

قال لى ــ وقد رأى الرعب فى عينى :

ــ « هل هناك ما يحميك ؟ كيف تصارح أسرة من مصاصى الدماء بهذا وأنت فى بيتها ؟! »

لم يكن هناك ما يحمينى فعلاً .. تصرفت بحماقة ، لكنى قلت مراوغًا :

ـ « بالطبع هناك طريقة للحماية .. إنها تحت هذه البدلة .. لو هاجمنى أحدكم فلسوف تكون العاقبة وخيمة .. »

ـ « لا داعى .. لن يهاجمك أحد .. ولتعلم أننى لا أصدق حرفًا مما تقول .. عيناك تشيان بالخوف والكذب » .

ثم رفع كأسه وراح يرمق السائل الأحمر ويتكلم :

ـ « فى لقائنا القديم قلت لك إننى أشك فى أن ما قيل عن (مصاصى الدماء) حقيقة .. هناك من تحدثوا عن مصاصى الدماء عند الفراعنة .. سوف تجد مصاصى الدماء بقوة فى الأدبيات البابلية والآشورية .. لاميا .. لاماستو .. ليليث .. الأخوات إمبوسى أو مورموليسيا (الذئاب المخيفــة) .. كلهن الشىء ذاته . فى كل الثقافات السامية سوف تجد ذلك النموذج .. إنها موجودة فى الأساطير البابلية .. الآشورية .. العربية .. العبرية .. حتى العرب لديهم الهامة .. التى يقال إنها كائن يخرج من المقــابر ليلاً ليمتص دماء النــاس ... فى اليونانية تجد كلامًا عن (لاميا) الرهيبة التى كانت ملكة ليبيا .. عند الآشوريين كانت هناك الشيطانة (لاماستو) التى تقتل الأطفال الصغار ربما

وهم فى أرحام أمهاتهم ، وهى صورة أخرى من (ليليث) .. الأمر مريب فعلاً ! »

كنت أعرف معظم هذا الكلام لكنى ظللت لا أفهم ما يريد قوله .. أردف :

ـ « لفظة Vampire ذات أصل سلافى .. (فام) معناها (دم) و(بير) معناها (وحش) ... إن أهم أساطير مص الدم موجودة عند السلافيين .. تذكر أن (دراكيولا) رومانى .. لكن لفظة Vampire دخلت إنجلترا وفرنسا عندما اشتهرت قصتان مخيفتان عن (بلوجويوفيتز) و(أرنولد باول) ... الأول ألمانى مات فى الثانية والستين لكنهم يقولون إنه عاد مرتين ليطلب طعامًا من ابنه . رفض الابن فوجــدوه ميتًا فى اليــوم التــالى .. وعاد (بلوجويوفيتز) مرة أخرى ليفتك ببعض الجيران . الثانى فلاح وجندى متقاعد مات من ثم بدأ الجيران يموتون وقد خلت عروقهم من الدماء .. باحث فرنسى محترم هو (أوجستنين كالميه) كتب عن (مصاصى الدماء) عام 1746 وأقر أنهم موجودون .. هكذا صارت كلمة (مصاص دماء) على كل لسان .. عام 1816 قدم (جون بوليدورى) قصة (مصاص الدماء) التى كرست فكرة

مصاص الدماء الأرستقراطى فى الأذهان . وقد استوحى الشخصية من الشاعر البريطانى لورد (بيرون) . حتى فى العصر الحديث هناك كتاب ظهر عام 1928 اسمه (مصاص الدماء : أصله وفصله) . للكاتب البريطانى مونتاج سامرز » .

قلت فى عصبية وقد نفد صبرى :

ـ « ما لزوم هذه المحاضرة الطويلة ؟! »

ـ « أردت أن أوضح لك أن الأمر جزء من الطبيعة ، ومن العسير أن تقاومها .. محاولة إحياء المومياء التى قمت بها لم تحى المومياء ، لكنها جعلت روح (دراكيولا) تحل بنا جميعًا .. كلنا تبدلنا فى تلك الليلة ، والحقيقة أن تحولنا بدأ قبل الثانية عشرة بكثير .. كل منا فى فراشه كان يحلم .. العرق يغمره .. يحلم أحلامًا شنيعة دموية .. يتقلب .. يئن .. يزأر .. ولهذا لم نلحق بك فى القبو ، ولو أنك فتحت غرفة واحد منا لشممت رائحة الكبريت تؤذى عينيك ، ولرأيت كلاً منا فى غيبوبة لكنه مفتوح العينين أحمرهما ، يغرق الزبد شفتيه .. من حسن حظك أنك لم تفعل . (كاترين) كانت تعلم ما يحدث لكنها قررت أن تتماسك وتتم

التجربة .. لكن الوقت تحرك وفى النهاية صارت مصاص دماء كاملاً مثلنا ، لكنك لم تتبدل » .

قلت فى صوت كالهمس :

ـ « إذن كنت أنا محقًا » .

ـ « بالفعل كنت كذلك . وهذا مؤسف .. »

ـ 5 ـ

قبل أن أتكلم ، وجدت هؤلاء يقفون من حولنا ..

كانوا نحو عشرة ..

عرفت منهم د. (لوفارسكى) .. عرفت د. (وينسلو) وهو من أصدقاء (كامنجز) .. عرفت كثيرين ، والأهم أننى عرفت (ما) هم ..

فى الضوء الساقط من أعلى كانت الظلال تغمرهم .. لكنى شممت رائحة الكبريت الخانقة ، ورأيت الهالات السوداء تحت العيون والشحوب الواضح . أنا لست طفلاً .. رأيت مصاصى دماء بعدد شعر رأسى (وهذا يدل على أن العدد ليس كبيرًا) لكنى أعرفهم على الفور ..

أى وجـوه هـذه ! بعضهم كان رأسـه يميـل على كتفه كالمشنوقين ، وتلك المرأة التى غطى الشعر وجهها .. على طريقة الشياطين اليابانية (يورى Yūrei) ، هناك طفل مخيف فعلاً ..

أنا بطة ميتة كما يقول الأمريكان ..

مررت بمواقف مخيفة فعلاً ، لكنى ـ على قدر ما أذكر ـ لم أوجد قط فى بيت مغلق مع كتيبة من مصاصى الدماء ..

قال د. كامنجز :

ـ « هذه هى أسرتنا الصغيرة .. أنت تعرف د. (لوفارسكى) الذى شاركنا التجربة .. تذكر (وينسلو) (ومايكل) ... »

ثم أشار إلى كاترين :

ـ « كاترين العزيزة تخرج كل ليلة لتغنى مع حفلات الروك .. تعود لنا برجل أحمق ثمل لا يدرك الورطة التى وقع فيها ، ويكون هو حفلنا الليلى .. كاترين تعيش حياة صاخبة وتنعم بوقتها .. »

قلت من بين أسنانى شيئًا فقال لى :

ـ « ماذا تقول ؟ »

ـ « أنا لست ثملاً » .

ـ « لكنك أحمق .. هذا يكفينا ! »

قلت له :

ـ « إنها النصيحة القديمة .. لا تترك فتاة مصاصة دماء تأخذك إلى دارها ليلاً .. هكذا كانت أمى تنصحنى » .

ـ « إن الكبار يعرفون مصلحتنا دائمًا .. »

بدأت أفك ربطة عنقى كى أسهل لهم عملية الامتصاص ، فأنا لا أحب إطالة لحظاتى الأخيرة كما تعلم .. هذه ليست سيمفونية يجب الاستماع لها فى استرخاء ، وليست قطعة (كباب) لا بد أن تمررها على لسانك مرارًا لتطيل تذوق طعمها .. لكن (كامنجز) رفع يده ليوقفنى :

ـ « أنت لا تفهم .. نحن لسنا سعداء .. »

نظرت له فى حيرة ، فقال :

ـ « تلك اللعنة التى أصابتنا جميعًا ، جعلتنا نفقد أبسط حقوق الإنسان : الحق فى أن يموت .. الحق فى أن يمشى فى الشمس وينعم بالربيع .. حياة الأطياف هذه لا تناسبنا ، والمشكلة هى أننا مرغمون على أن نصنع كائنات أخرى مثلنا .. أى أن بقاءنا أحياء يؤذينا ويؤذى الآخرين . لهذا أردت أن تأتى الليلة ، ولهذا لن نفتك بك ولن نضمك لنا .. »

ثم وقف كأنه على خشبة مسرح وسط الأضواء وقال :

ـ « يجب أن ترى كيف ننام .. »

مشيت وسطهم كأننى أمشى نحو طبلية المشنقة . هناك ممر جانبى رطب مظلم ثم درجات تقود لقبو .. هناك دائمًا قبو ..

ظلام دامس لكن أحدهم أضاء مصباحًا كهربيًا واهنًا بعث جوًا من الوحشة فى كل صوب.

رأيت التوابيت .. الصناديق الخشبية الكئيبة متراصة بجوار الجدار . كلها مفتوح وقد بدا بوضوح أنها مبطنة بالحرير ومريحة جدًا ..

هؤلاء مصاصو دماء تقليديون جدًا .. يتصرفون كمصاصى دم فعلاً .. كنت أتوقع بعض التجديد ..

كان هناك ذلك التابوت المغلق الذى يخرج من تحت غطائه الكثير من القش .. هو الوحيد المغلق هنا ومنظره مألوف ..

قال د. (كامنجز) وقد رأى اتجاه نظراتى :

ـ « بالفعل .. صديقك معنا هنا .. أنت تذكر (المومياء) التى سرقناها من ترانسلفانيا .. ذهبت معى إلى كل مكان ذهبت له .. »

ثم جلس على تابوت مفتوح ، والتف كل الموجودين حولنا .. قال :

ـ « كما قلت لك : حياتنا كئيبة ونحن غير فخورين بها على الإطلاق ، لـذا فكرنا فى أن يخلصـنا شخص لم يتلـوث .. أنت هو الأقدر على ذلك .. لا أحد سوف يصدقنا أو يقبل القيام بهذا الدور » .

نظرت له مذهولاً :

ـ « هل تريد منى أن أقتلكم ؟! »

ـ « وتخلص البشرية من شرورنا .. وتخلص أرواحنا » .

ـ « وهل تعتقد أننا فى القرون الوسطى لأفعل ذلك ؟! »

قالت كاترين التى ظلت صامتة حتى هذه اللحظة :

ـ « هذا سهل .. لا أحد يعرف أنك هنا .. لا أحد يربط بينك وبيننا . سوف يجد الجيران مجموعة من الجثث ولن يعرف أحد تفسير هذا اللغز .. »

تقدم د. (وينسلو) .. رأيت فى يده ذلك الوتد الكريه المدبب ، ومعه مطرقة ضخمة .. وقال لى :

ـ « سوف يكون الأمر سهلاً .. سنموت أثناء نومنا .. كل ما عليك هو أن تغـرس الوتـد فى صدر كل واحـد منا وتدقه بالمطرقة .. يمكنك أن تنجز المهمة خلال عشر دقائق » .

ـ « والثوم وقطع الرأس ؟؟! »

قال كامنجز ضاحكًا :

ـ « لا تصدق هذا الهراء فى السينما .. قطع رأس مصاص الدماء وحشو فمه بالثوم .. هذا كلام فارغ .. الوتد كاف جدًا » .

كنت أترنح شاعرًا بالحيرة ..

وجلست على تابوت خشبى بدورى شاعرًا بالحيرة ..

لابد أننى جلست طويلاً جدًا .. ثم بدأ ضوء خافت يتسرب من خارج القبو .. النهار يقترب .. رأيت الموجودين يتحركون فى صمت كأنهم أطياف . ثم يتجه كل واحد منهم للتابوت ليرقد فيه .. ثم يعقد يديه على صدره .. (وينسلو) .. (كاترين) .. ثم دنا منى (كامنجز) وهمس :

ـ « حان موعد السبات لنا .. فكر جيدًا .. أنت تنقذ عشرات الأرواح .. ربما مئات » .

ولم أدر كيف تسلق إلى داخل أحد التوابيت وتمدد ...

وفى اللحظة التالية وجدت نفسى وحدى مع أكثر من عشرة مصاصى دماء نائمين !

* * *

ظللت لســاعة عاجــزًا عن اتخاذ قرار .. جالسًا فى الضوء الشاحب .

من المستحيل أن أقتل شخصًا .. خصوصًا لو كان هذا بغرس وتد فى صدره ، لكن من قال إن هؤلاء أشخاص ؟!

يمكننى بسهولة أن أغادر المكان ولا أعود أبدًا ، لكنى سأذكر للأبد أننى المسئول عن أى جريمة أخرى وأى شخص يموت ..

ربما كان بوسعى إنهاء الأمر .. انا سأقتل وحوشًا وبإرادتها الكاملة ..

لا أعرف متى ولا كيف وجدت الشجاعة .. ولا متى اتخذت القرار ..

دنوت من أول تابوت وأخذت نفسًا عميقًا .. قمت بتثبيت الوتد بيد ترتجف ، ثم رفعت يدى بالمطرقة .. وحاولت ألا أنظر إلى الوجه ..

هنا سمعت ذلك الصوت ..

نظرت للخلف فرأيت التابوت المغلق الذى يتدلى منه القش ينفتح ..

يد متآكلة تتحسس الحافة ..

صوت زئير يتعالى من الداخل .

هنا أدركت الحقيقة : يبدو أنهم نجحوا !.. التجربة التى كانت منذ نحو ربع قرن قد نجحت ..

ولماذا يصحو ؟! هذا ببساطة يدل على أننى ملوث ..

لست الشخص النقى الذى حسبه د. (كامنجز) ..

غطاء التابوت يرتفع

ضربات قلبى تتسارع وذلك الألم يولد فى صدرى مع شعور واجف كأننى أهوى فى بئر مصعد .. لو فقدت الوعى هنا لكانت النهاية ..

استندت إلى الجدار حتى بلغت الدرج وتحاملت على نفسى إلى أن صعدت .. وجدت بشكل ما الردهة .. وجدت باب البيت .. فررت منه ..

ثم سقطت ميتًا .. أعنى سقطت فاقد الرشد ، فى الحقيقة ..

* * *

عندما استطعت أن أمشى فررت من المكان ..

فررت من الولايات المتحدة كلها ، ولم أستطع نسيان تلك اللحظات .. نسيان أننى لم أستطع تنفيذ مخططى ، لأننى ملوث .. نسيان أن هناك أسرة مصاصى دماء تعبث بحرية فى ميامى .

مرت على هذه اللحظة أشهر ..

ثم تلقيت خطابًا من الولايات بخط مألوف يقول :

ـ « ميامى فى ...

ـ « للمرة الثانية استطعت خداعك يا رفعت . للمرة الثانية أضحك من أعماقى كلما تذكرت رعبك بعد تلك التمثيلية القاسية . للمرة الثانية تثبت أن قلبك ضعيف جدًا وأنك لا تفقه شيئًا فى عوالم ما وراء الطبيعة ، وأنك سهل الانخداع ..

ـ « لا تنكر أن المقلب الذى أعدته لك (كاترين) كان محكمًا فعلاً ، وأن صديقنا النائم فى التابوت أدى دوره ببراعة .. آمل أن نلتقى من جديد يومًا ما ، وعندها أعدك أن أتصرف بشرف وأكف عن هذه الألعاب !

د. ريتشارد كامنجز .. »

مزقت الخطاب فى عصبية .. هذا الرجل مصر على أن يجعلنى أحمق . فى كل مرة أهرب كالبلهاء ثم يضحك هو الضحكة الأخيرة .. لقد نال منى فعلاً . ليتنى أستطيع تدبير مقلب مماثل ..

على أننى بدأت أهدأ مع الوقت وأفكر بهدوء ...

من جديد ، هذه دعابة بالغة التعقيد . هل أعد كل هذه التوابيت ليمازحنى ؟ وهل جلب كل هؤلاء الضيوف ليضحك ؟! وماذا عن المرايا والفضيات التى لا تعكس صورًا ؟ لا أظن ..

ترى .. هل كان كل شىء حقيقيًا وفشل ببساطة لأننى ملوث ؟!

أمر جدير بالاهتمام ..

سأعيش وأموت ويظل د. (كامنجز) لغزًا عاصيًا على الحل .. للأسف لم يعد هناك وقت كاف لمعرفة الحقيقة ..

(س)

سر الزنزانة

ـ 1 ـ

جاءت د. كاميليا تزورنى ومعها هدية تخفف من آلامى ..

هذا كتاب يقارن بين الفلاسفة الغربيين فى عصر العقل ..

هدية ممتازة فعلاً . لم أندهش من ذوقها الغريب فى الاختيار ، لكن اندهشت جدًا من قدرتى على الخداع .. بعد هذا العمر الطويل لم تفهم بعد أننى لا أطيق الفلسفة .. لكنى لم أجرؤ على التصريح بهذا قط إلا عندما صغر سنى ، وصرت مراهقًا غرًا .. تذكرون هذه القصة ؟ لقد ظللت أخدعها لمدة طويلة جدًا ولم ينكشف أمرى قط . لا أدرى لماذا كنت أتذكر (يوسف وهبى) فى ذلك الفيلم الذى يقنع فيه زوجته الشمطاء (مارى منيب) أنه مخلص كالملائكة ، بينما هو أكبر وغد على البسيطة ..

برغم هذا لست نادمًا على معرفتها .. كانت صديقًا مخلصًا متفتحًا .. (صديقًا) فأنتم تعرفون رأيى فى أنوثتها ... هى مجرد صديق رائع ..

عمر كامل ضاع وهى تعتقد أن بوسعنا أن نقضى ما بقى من عمر معًا ..

بالطبع لم يكن هذا واردًا .. وحتى هذه اللحظة هى لا تدرك أننى راحل فعلاً ، وأن هذه آخر أيام لى ..

قالت لى – وهى شاردة :

– « كنت لطيفًا جدًّا عندما كنت طفلاً أسخن لك الرضعة وأبدل الكافولة » .

قلت بصوت مبحوح :

– « هـل هـذا مديح أم ذم ؟ هـل يعنى هـذا أننى لست لطيفًا ؟! »

قالت بيت الشعر الجميل :

– « هذا مجاج النحل تمدحه .. وإن شئت ذمًا فقل قيئ الزنابير » .

ثم اتجهت إلى الدورق المجاور للفراش فصبت لنفسها كوب ماء ، وشربته .. لم تعبأ بكون هذا كوبى أنا .. قلت لها ممازحًا :

– « على فكرة .. السرطان ينتقل بالجراثيم .. أنت فى خطر داهم !! »

نظرت لى مليًا ثم قالت بلهجة لم أسمعها من قبل :

– « ليتنى أصاب بالسرطان بدلاً منك .. »

وقبل أن أفهم ما يدور ، طبعت قبلة على جبينى وغادرت الغرفة بسرعة .. أدركت أنها تمسح شيئًا سال من عينيها ....

لماذا تعقـدون الأمور يا شباب ؟.. لمـاذا تجعلـون الرحلة صعبة ؟

القصة أبسط من هذا بكثير ..

طر يا طائر أبى الحن .. طر بعيدًا عنى ..

* * *

لكن السفينة لا تتوقف ولا تلتقطه .. تبتعد وهم ما زالوا يلوحون له . هنا يدرك الحقيقة المرعبة : حياتهم مستمرة من دونه . يتبدل وجهه إلى الذعر والحزن .. ثم تخور قواه فينزلق لأسفل ببطء .

* * *

كنت أرتجف من التأثر .. تذكرت موقفًا مماثلاً وقبلة مماثلة على جبيني ..

كان ذلك في (ويلز) بإنجلترا ..

كلامي اليوم عن باب .. هذا الباب الذي أتحدث عنه لم يكن في مصر .. لم يكن في مكان تعرفه .. الباب الذي أتحدث عنه لم يكن باباً خشبيًا أو حديديًا ، بل كان أقرب إلى جدار سميك يُهدم ولا يُفتح .. لكن الناس هناك كانوا يسمونه بابًا ..

كان هذا في كهف قرب قرية في (ويلز) ..

كان الناس يمرون جوار الكهف ، ويتحدثون عن (خريولسن) الحبيس هناك .. عن الساحرة التي أنجبته .. والتي أعدمتها محاكم التفتيش هناك .. وكيف دفنوها فيما يعرف بزنزانة (خريولسن) ..

كانت أشنع خبرة في حياتي تنتظرني هناك .. ربما كانت كل قصص حياتي في كفة وهذه القصة بالذات في كفة ..

لا أحب أن أحكيها ..

لكن الحين قد حان !!

عندما احترقت الساحرة أنذرت الناس بأن ولدها (خريولسن) سيعود بعد أعوام حين يفتح الزنزانة رجل أجنبي .. وما لم ينسه أحد هو أن المصائب لم تفارق القرية لحظة طيلة عمرها المديد ..

وبعد أعوام جاء مغامر إلى الكهف .. كان هذا بريطانيًا يدعى د. (هنري لستر) .. فتنته الأسطورة ، وصمم على أن يجد رجلاً أجنبيًا يفتح تلكم الزنزانة ..

كانت فكرته أن يناول الضيف المطرقة ، ثم يطلب منه أن يفتح الجدار بنفسه ؛ لأنه ضيفهم ..

طبعاً ما كان الضيف الأحمق ليعلم أنه أول دم أجنبي يدخل الكهف منذ سبعة أجيال .. حقًّا لم أتصور أنني كنت هذا الضيف .. إن معلوماتي تقول : إن من يتكلم أكثر يدفع الثمن ..

لكن هل يوجد ثمن أغلى مما أنوي دفعه اليوم ؟

قلت من قبل : إنه في آخر لحظة في حياتي وعندما أوقن بالموت سأتكلم .. ليس قبل ذلك ..

بدأت القصة عندما ....

ما هذا ؟! هناك من يصرخ في الردهة ..

نهضت من الفراش وفككت جهاز المحلول المعلق هناك ، ثم دسست قدمى فى الخف وفتحت الباب ..

كانت الممرضة السهرانة تغطى وجهها وتبكى ، بينما راحت ممرضة أخرى تخفف عنها ، وكان هناك رجلا أمن .. أحدهما بدا كأنه عاد من جولة سريعة ..

استندت إلى الباب وسألت :

ـ « هل هناك شىء ؟.. »

قال رجل الأمن بصيغة رسمية باردة وهو يتأبط ذراعى :

ـ « عد للفراش يا جدو .. الممرضة تقول كلامًا غريبًا فلا تهتم .. »

قالت الممرضة التى صار وجهها متوحشًا كالنمر .. وانتثر شعرها وسقط الكاب من على رأسها :

ـ « مصطفى .. قلت لك : إننى متأكدة .. كان هناك صبى مراهق يمشى على أربع .. يمشى على أربع كالكلاب ، واتجه نحو غرفة مريض سرطـ ..... »

ثم ابتلعت لسانها لما تذكرت أنه أنا بالذات ..

هل تعتقد هذه الحمقاء أننى ـ وأنا الطبيب ـ لا أعرف دائى ، وأتصور أنها نزلة برد لا أكثر ؟!

صبى مراهق ؟! وأين ذهب ؟

قالت وهى ترتجف :

ـ « لما صرختُ ركض مسرعًا وتوارى فى ركن الردهة المظلم البعيد .. كان المشهد لا يُصدق .. هذا شيطان بالتأكيد .. »

قالت زميلتها وهى تربت على كتفها :

ـ « لا عليك يا أختى .. أنت تعرفين أن المكان يعج بأرواح الموتى .. »

ـ « أرواح الموتى تبدو كقطط سود ولا تبدو كهذا .. »

كنت أنا قد عدت للغرفة ..

أغلقت الباب وجلست على طرف الفراش .. شبح صبى مراهق .. هذا الشبح يخصنى فعلاً .. هذا ملكى .. أنا أعرف أشباحى بسهولة .

ولكن .. كنت أكلمكم عن شىء آخر منذ دقائق .. ما هو ؟.. نسيت ..

لا عليكم .. تصبحون على خير ..

ـ « أنا أعلم أنه سيأتى يوم أضيع فيه هـذه الأرض عن ناظرى ..

إن الحياة تغادرنى فى صمت ، بعد أن تسدل على عينى الستار الأخير ..

ومع هذا فإن النجوم ستلمع ساهرة فى الليل ، وسيسفر الفجر كما أسفر أمس ، وستمتلئ الساعات كما تمتلئ أمواج البحر حاملة اللذات والآلام .. »

طاغور

* * *

جاء أحد عمال المستشفى لى فى غرفتى جالبًا خطابًا مغلقًا ..

كنت منهمكًا فى تدوين أحداث (أسطورة الرجال الذين لم يعودوا كذلك) .. هكذا وضعت القلم وأمسكت بالخطاب ..

جميل .. يبدو أننى صرت من معالم هذا المكان لدرجة أنه عنوانى الجديد. أمقت الخطابات طيلة حياتى لأنها تحمل مصيبة ، لكن تلقى خطاب فى هذا المكان أمر يستحق أن ألقى نظرة ..

بيد مرتجفة فتحت الخطاب فوجدته مكتوبًا بإنجليزية أنيقة .. لكن لا أعرف هذا الخط ..

ـ « د. إسماعيل :

ـ « عرفت ببالغ الأسى أنك تواجه مضاعفات هذا المرض الوبيل ، وقيل : لى إنه انتشر فى كل جسدك ، وأنك تتلقى جرعات هائلة من المسكنات دون جدوى . بالتأكيد هذا خبر مؤسف. لكن أزعم أن عندى العلاج لك ، وهو علاج غير تقليدى كما لك أن تتخيل .. سوف يزول الداء عن كل خلاياك وتعود كما كنت منذ أعوام وأفضل. أنا أضمن لك هذه النتيجة.

ـ « لكن لكل شىء ثمنًا ... »

ابتسمت وقلت لنفسى :

ـ « حسن .. هذه هى لحظة بيع روحى للشيطان .. كان لابد أن تأتى ، لكن كيف إذا كانت الشياطين تنتظر موتى وتتسلى بقزقزة اللب والترمس ؟.. لن تفسد هذه المتعة على نفسها ..

استطرد الخطاب :

ـ « كلا .. لن تبيع روحك للشيطان. لقد مر أوان عرض كهذا ..أنا أعلم أن لديك كتابًا معينًا تحتفظ به ولا يمكن انتزاعه منك . وبمجرد موتك سوف يفوز بالكتاب شخص معين لا ينتمى لعالمنا. أعرف هذا. لكنى أرغب فى الحصول على هذا الكتاب هنا والآن ..

ـ « العرض كما هو واضح : الكتاب مقابل نجاتك من السرطان . أعرف أنك تحمل روح بطل ، وهذا البطل يغريك بأن ترفض. لكنى أؤكد لك أنك لن تعيش سوى حياة واحدة ، ولا أحد يترك الحياة حيًا . انتهز الفرصة ..

ـ « سوف أزورك فى المستشفى غدًا ، وأتوقع أن تعطينى الكتاب وتنال الخلاص .

ـ « موعدنا هو الغد .. »

رحت أتأمل الخطاب فى شرود .. لا يوجد توقيع ..

ولا شعوريًا تحسست موضع الكتاب حول خصرى . إنه هناك ..

الخلاص من السرطان ومن الألم. هل هذا وعد حقيقى ؟ ولو كان حقيقيًا فهل أقدم على هذه المبادلة الخطرة ؟.. هذا كتاب خطير شرير . ومن الوارد أن يقع فى أيد غير أمينة ..

دعك من أن هذا الكتاب هو بوليصة تأمينى الوحيدة ضد لوسيفر .. لو لم يعد معى فلسوف ينسفنى نسفًا .. لن يقتلنى بل سوف يمرح كثيرًا ..

ـ « هناك الزيجول الذى يلتهم طبقات الجلد ثم العضلات ويترك الأعصاب ملتهبة حارقة حتى آخر لحظة ... هناك الريموزا الذى يتم إدخاله فى فم الضحية .. تتزايد حرارته مع الوقت حتى يتحول إلى نار محمية تشتعل فى أحشاء الضحية

هذا موت بطيء يستغرق عدة ساعات ... هناك ديدان الناكاخ التى تقتحم الرأس من الأنف ، وتشق طريقها فى جمجمة الضحية حتى المخ مدمرة كل شىء تقابله .. »

إنه قريب منى يتشمم كذئب مستعد للهجـوم فى أى لحظة لو تركت العصا ..

لا أحسب أن هناك من يقدر على حمايتى منه سوى الله تعالى ، لكن لا يوجد كائن أرضى يستطيع .. إلا بالطبع الكائن الأرضى الذى يقدر على القضاء على هذا السرطان. لو فعل فهو يستحق الكتاب .. لكن كيف أعرف ما لم أعطه الكتاب أولاً ؟

من صاحب الخطاب ؟

يصعب علىَّ أن أسترجع من خيط ذكرياتى كل هؤلاء الذين يمكن أن يرغبوا فى كتاب كهذا ... عشرات الوجوه والقصص والأشخاص .. لا يمكن تذكر أحد ، لكن على الأقل يمكن استبعاد من يتكلمون العربية .. وهـو بالطبع واسـع العلم ، ويتصل بالكائنات الشيطانية ، وهو ليس لوسيفر ..

سوف يأتى غدًا ...

لن أشغل ذهنى أكثر .. عندما ألقاه سوف أتخذ قرارى فورًا ..

سوف أنام وغدًا أعرف الحقيقة ...

فى القصة القادمة نستكمل أسطورة الأساطير ـ

(الجـزء الثـانى)

لاحظ أن الكتيب سيحمل الرقم **80** (**2**)

مشروع القرن الثقافى

روايات مصرية للجيب

فى كل رواية متعة دائمة

ما وراء الطبيعة

روايات تحبس الأنفــاس
من فرط الغموض والإثارة



د. أحمد خالد توفيق

أسطورة الأساطير (الجزء الأول)

لم يعد هناك المزيد من الوقت كى نرجئ الإجابات عن أسئلة أثرناها من قبل. الساعة تدق .. والدقائق تتسارع ... وخلايا السرطان تعيث هنا وهناك فى عظام مضيفنا المسن ... أين د. كامنجز؟ ما هى المزييرة؟.. من هو كراكوس؟.. هل هناك أطلنطس حقًا؟.. أين بيت بورلى؟.... أسئلة .. أسئلة .. أسئلة .. نعم .. حان الوقت كى نجيب عن هذا كله. حان وقت إغلاق الأبواب المواربة، وسد الجيوب المتروكة فى زحفنا. د. رفعت إسماعيل يأخذنا معه عبر أسطورة الأساطير....

العدد القادم

أسطورة الأساطير

(الجزء الثانى)

الثمن فى مصر 500
وما يعادله بالدولار الأمريكى
فى سائر الدول العربية والعالم

المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع بالقاهرة والإسكندرية

